حليم بركات

طائر الحوم

رواية




حليم بركات

روائي وعالم اجتماع.
ولد في الكفرون، سوريا، عام 1933 وعاش في بيروت.
حصل على البكالوريوس والماجستير في علم الاجتماع من الجامعة الأميركية في بيروت، ودكتوراه في علم النفس الاجتماعي من جامعة ميشيغان في الولايات المتحدة آن اربور (1966).
عمل أستاذاً وباحثاً في الجامعة الأميركية في بيروت والجامعة اللبنانية وجامعة هارفرد وجامعة جورجتاون.
نشر عدة كتب ودراسات في العربية والإنكليزية.

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعفس
المملكة العربية السعودية

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

طـائـر الحـوم

للمـؤلـف

- المجتمع العربي المعاصر، 1984.
- الرؤية الاجتماعية في الرواية العربية، 1966.
- القمم الخضراء، رواية، 1956.
- الصّمت والمطر، مجموعة قصص، 1958.
- ستّة أيام، رواية مترجمة إلى اليابانية والإنكَليزية، 1961.
- عودة الطّائر إلى البحر، رواية مترجمة للإنكَليزية والفرنسية واليابانية، 1969.
- الرحيل بين السهم والوتر، رواية مترجمة إلى الإنكَليزية، 1969.

كتبتُ هذه الرواية أصلا قصة بعنوان «اهبط أيها الموت إلى الكفرون» سنة 1962 لدى زيارتي الأولى للولايات المتحدة ونشرتُها في مجلة «أدب»، بيروت، صيف 1962، العدد الثالث، ص 35-26. أعدتُ كتابتها في فترات متقطعة بين 85-87 بعد زيارة مفعمة للكفرون فأخذتْ شكلها الحالي.

حليم بركات

حليم بركات

طائر الحوم

رواية

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفدير، الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تَمَّ نَشْرُ هَذَا الكِتَاب ضِمْن سِلْسِلة
نصوص أدبية

الطبعة الأُولى 1988

رقم الإيداع القانوني : 1988/435

هذه هي الأَرض التي
أغرقتْ جذورها في شِعري

بابلو نيرودا

عميقاً في داخلي
كما في تلك البحيرة المفقودة
تسكن رؤية طائر

بابلو نيرودا

تفرّج ياحبيبي وشوف
حليم بركات عالْمَكشُوف

مَـوْتُ طَـائِـرِ الحُـوم

فجأة ظهرت طيُورُ الحوم في سماء الكفرون، فحدث صخبٌ هائل.

حلّقت معلنة شموخها وبدايـات الخريف بعـد صيف حـارٌ ونهـايـات مواسم العنَب والتّين والرّمّان.

تراكضنا حفاة نراقبها بشغف مـأخوذين بـأشكـال طيرانهـا وأجنحتهـا الضخمـة وأعنـاقهـا الطّويلة. تُقْبل أسراباً أسراباً، مهيبة، راسمة أشكـالهـا بخطوط سوداء بين زرقـة السّمـاء الصـافيـة وظلال الأشجار في النّهر.

في البداية أقبل سربٌ منها اتّخـذ شكلَ علامـة النّصر يتقـدّمـه طـائر جبّـار يتفرّع عنـه خطّان مائلان من جماعته. وتبعته أسراب أُخرى من مختلف الاتجاهـات. أقبل سرب من جهـة نبع كَرْكَرْ ونبع الشيخ حسن، وآخر من جهة نبع الشّير.

تتحول علامات النّصر إلى دوائر تحلّق فوق النّهر وجبل السّيدة وجبل السائح المتقـابلين وجهاً لوجه بشيء من الانحراف كأنّما يتعـاتبـان أو يفكّران بـالتّعـاتب مشرفين على وادٍ أخضر عميق كجرح تاريخي.

تفرش أجنحتها السّوداء الجبارة إلى أقصى أبعادها كاشفة عن صدورها البيضاء، تنزلق في الهواء مثل غيمة، تنقض مثل صاعقة، ترتفع مثل إلـه، تتجمّد في مكانها بعنفوان مثل الشمس، تتسلّق، ترتفع، تهبط، تنحدر.

نتأمّلها بشغف وقد امتلكتْ سماءً شاسعة تعرّت من غيومهـا وتزيّنتْ بـأوشحـة شفـافـة من نتف الغيوم البيضـاء الصّغيرة. تسرح في الفضـاء الرّحب مسحورة بشفـافيتـه وعُرْيِـه مثـل فتـاة تتأمّل صدرها في مرآة الماء. بل تلعب، كأنّما نسيت جوعها وعطشها، متغـافلـة عن الصيّـادين الذين خرجوا من منازلهم إلى السّطوح والتّلال حاملين بنادقهم الصّدئة.

بعد هذا الزمن الطويل كخيوط الهمّ تتجاوب في ذهني طلقات النّار دفعة واحدة، ثم متتابعة مثل خفقات قلب مضطرب. تتابع مدوية من كلّ اتّجاه وصوب كل اتّجاه كأنّما أُعلنتْ حرب بعد عهد طويل من السّلم المُمِلّ.

كل شيء يتبدّل، وفي لمحة خاطفة يتّخذ الطّيران شكل الفوضى. تتناثر الدّوائر كما لو حدث انفجار هائل في داخلها. الأجنحة، كالقلب، تخفق باضطراب. السّماء نفسها تتبدّل. تتبقّع اتّساعاتها الزّرقاء الصّافية الهادئة بنتف من الغيوم الرّماديّة الصّغيرة حيث تمّت الانفجارات.

تجفل طيور الحوم فتتوزع، كل على حدة، وجلة في مختلف الاتّجاهات. تطلق صراخاً حاداً، ويتهاوى بعضها إلى موته الحتمي في أودية عميقة كهموم القلب. ريشها يترنّح في الهواء ويهبط ببطء.

أيضاً ما أزال حتّى الآن وإلى النّهاية، لاشكّ، أذكر بوضوح كلّي صراخَها الملهوفَ دون أن أعرف كيف أصفه حتى لنفسي وفي برهات الطمأنينة النادرة. ويقترن صراخها الملهوف بصورة ريشها الأسود والأبيض يترنّح في الهواء ويتساقط متمهّلاً كأنّما يصرّ على اللّعب البريء مهما اشتدّت الأزمات.

وهَوَى أمامي، كما لو كان صاعقة، عند صخرة «الضهر» الملساء تحت عش الشّوحَة. يتخبط ويزعق زعيقاً حاداً مضطرباً يختلط فيه الألم والغضب والاحتجاج والرّعب. قفزت باتجاهه أريد أن التقطه، ولكنني توقفت متخوفاً. أجزع منه وعليه. أقتربُ على مهل كي أطمئنه. يزداد تخبطاً وزعيقاً. أتراجع. أعود أتقدم نحوه بحذر وأمدُّ يدي إليه برفق. كيف أُقنِعُه بأنني لست من نسل الصيادين ؟ لا ألومه لأنه لا يثق بي. أقتربُ رغم الخوف. أنْحَنِي فوقه وقد بدأ يهمد قليلاً. أمُرُّ بكفي برفق فوق عنقه الطويل. لا يطمئن هو فلا أطمئن أنا لمنقاره الأحمر الصلب. ولكن لابد أن أتجرأ.

بدا بوضوح أن جناحه الأيمن مكسور ودمه يسيل فيصطبغ ريشه الأسود والأبيض بلون قرمزي حاد حار. إنه بحاجة إلى مساعدة. لا أعرف كيف يجب أن أضمد جراحه. أخاف أن ألحق به ضرراً بدل أن أساعده. أرتجفُ.

في تلك البرهة الحرجة، أقْبَلَ رئيف مندفعاً كما لو كان نمراً جائعاً استشم رائحة دم الفريسة. وقبل أن أدرك، انتشل الطائر الجريح مني وهبط بسرعة إلى النهر يعرضه بفخر

على من يصادفهم. وعندما تجمهر حوله الناس وازدادت حشريتهم، تسلل من بينهم خوف أن ينتشلوا الطائر منه كما انتشله مني.

عرفت فيما بعد أن رئيف ذبح طائر الحوم ونتفه وشواه وأكله. فقط بعد زمن طويل اعترف أن لحمه قاسٍ ومُر. ولكنه لم يأسف، فقد باع ساقيه الطويلتين إلى رجل يصنع من سيقان طائر الحوم مشارب سيجاراتٍ للمدخنين الأغنياء.

□□□

الشيخُ الكَبِير

بحنان تُمْسِك أمّي يَدَ مُنَى التي وُلدت في أميركا ولا تعرف العربية، وتمر براحتها فوق راحتها الصغيرة، مرددة :

يَا حَاحْ يَا بَاحْ　　　يَا أَيْدِينْ مُنَى يَا حِلْوِينْ يَا مْلاَحْ

وتستأنس مُنَى بهذه اللعبة الطريفة فتتطلع إلَيْنَا تطلب تفسيراً لما تقوله أمي التي تتابع مشيرة إلى وسط راحة الطفلة بعد أن تمر بأصابعها فوق الخطوط المتقاطعة، «كَانْ هُونْ فِي بِرْكَة مَيْ. أجَا العُصْفُور لِيَشْرَبْ». وتمسك بأصابعها واحداً واحداً بدءاً من السبابة «هِيَدا لَقَطْ العُصْفُور، هِيدَا دبَحُه، هِيدَا نَتْفَه، هِيدَا شَوَاه، وُهِيدَا الشَّيخ الكَبِير (تتمسك بإبهامها وتضخّم صوتها) بِيَاكُلْ كِتِيرْ».

وتدب أصابع أمي مثل نملة ببطء ثم بسرعة فوق ذراع مُنَى حتى كتفها فيما تتلاعب بصوتها :

دَبْ دَبِيبِي دَبِّيهَا　　　رُوحِي للسُّوقْ بِيعِيهَا
واشْتَرِي بِتْسك حَلاَوِي　　　حَلِّي ضرِيسَاتَك فِيهَا

وتزكزكها فجأة تحت إبطها فتضحك الصغيرة من أعماق قلبها مع أنها لا تفهم العربية. ربما ما كانت تضحك لو فهمت، فهي تحب العصافير. مرة أخرى تتطلع وتطلب تفسيراً، ولكنني أتجاهل طلبها خوفاً أن أصدمها بشراسة التعامل مع عصفور عطش جاء يشرب من بركة اليد المليحة.

تَحَوّلٌ إلى جِذْع شَجَرَة

حتى الآن لم أتعلّم لغتك يا طائر الحوم. لم أتعلّمها من زعيقك. ربما سأتعلّمها من صمتك وجناحك المكسور وريشك المترنح في الهواء. ومع أنني لا أفهم لغتك الغامضة، أظن أنني أعرفك. دخلت لتتوالد في أحلامي وتتساقط في كوابيسي من زمن بعيد. طالما سمعتك تنطق لغات الجزع والجوع والشبق. تركتني أتأمل مصرعك في وحدتي الأبدية أنا هذا الطفل الكَفْرُونِي، صديق الينابيع والرمان والصخور وشجرات الصفصاف التي تتمرأى بالنهر وتسكن لاَوَعْيِي.

أسمّيك طائر الحوم. ماذا تسمي نفسك ؟ هل لك اسمٌ غير الذي منحناك إياه ؟ ما علاقتك باسمك ؟ إذا أردت نتبادل الأسماء. أعطني جناحيك أعطيك منزلي. هل يغريك عُرْيُ السماء كما يغريني عُرْيُ الحبيبة ؟ لماذا تلاحقني جراحُك ؟

تتداعى في أعماقي تلك الذكريات بعد مرور ما يزيد عن حوالي أربعين سنة كأنما تستيقظ من عالم خفي عميق في الداخل. لماذا ؟ لا أدري لماذا الآن بالذات ؟ صحيح أننا، حبيبتي وأنا، كنا نراقب عصفوراً أزرق يستحم في بركة صغيرة صَنَعْنَاها للطيور في حديقة بيتنا. وما إن طار إلى شجرة الجيران حتى هبطتْ إلى أعماقي ألأَحِقُ تداعيات غريبة تجتاحني كموج المحيط على شاطئ الجسر الرملي.

وأعوم قليلاً فوق الموج عندما تسألني حبيبتي : لماذا تنظر إليّ هكذا ؟

أجبتها دون تردد محاولاً التمويه : أنظر إلى نفسي فيك.

بَدَا واضحاً أنها لم تقتنع. هزّت رأسها وعلّقت باستخفاف : لم أكن أدري أنني مرآة.

وباستخفاف مماثل قلت : أرى نفسي جذع شجرة في وجنتيك المائيتين.

ويتحول استخفافها إلى سخرية : جذع شجرة عتيقة تحولت مسكناً للنمل.

وأصحّح : بل غصن صفصافة يتكون.

حولت نظرها عني تفصح لي دون كلام أنني أهذي، مع أنها ألفت تداعياتي الغريبة. أركّز نظري عليها ولكنها تستمر في تجاهلها.

هي أيضا غرقتْ في داخلها وانبسطت ملامح وجهها مثل سماء صافية في يوم خريفي. تمنّيت لو أعرف ما يجول في خاطرها متسائلاً فيما إذا كانت أسراب الحوم تعبر سماءها هي أيضاً. تجنبت نظراتي كي تحتفظ بمسافاتها، على ما أظن، واستغرقتَ في تأملها حتى كدت أختفي من عالمها.

ولما لم يكن لديّ ما أفعله عدت أغرق بدوري في تأملاتي الخاصة. ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي تطول فيها الأزمة في علاقاتنا. في السابق لم أخذ شكواها جدّياً رغم أن ما بدر منها لم يكن مجرد لحظة غضب عابرة. ربما لم أخذ شكواها جدياً لأنني لم أكن قادراً أن أفعل كثيراً لتغيير أوضاعنا. ولكنها عنت حقاً ما قالت حينئذ : اسمعْ زهقت من هذه العيشة. شغل، نوم، قراءة الجريدة، مراقبة التلفزيون، دفع حسابات، عزائم، طبخ، جلي. إلى متى تستمر هذه العيشة ؟ ما معناها ؟ متى نتمتع بما نملك ؟ غداً لن نملك حياتنا. انظرْ إلى أمك. ماذا تملك من حياتها ؟ هل هناك ما هو أثمن من العقل ؟ لم تعد تملك عقلها. فقدتْ سيطرتها على جسدها. لماذا تختلف معها وتسم بدنك. المرأةُ كبرتْ. تنسى أنها في السابعة والثمانين من عمرها. لا تستطيع أن تغير عاداتها. خلص. خلاف، صراخ، سم بدن، ثم شعور بالذنب. خلص، قرفت. دبر الأمر.

أدركت يومها أنها على حق، ولكنني فعلاً لم أعرف ماذا يمكن أن أفعل. لم أستطع أن أقبل الحقيقة بأن أمي خرفت فأتوقع منها دائماً أن تستعمل عقلها الذي لم تعد تملكه كي تستعمله. أفلَتَ من قبضة يدها ومن قوانينه الذاتية وانطلق في مختلف الاتجاهات في فضاء واسع مضطرب.

ولم أفعل شيئاً، ربما لأنني حتى وقت قصير كنت أظن أنه بإمكاننا، حبيبتي وأنا، التغلب على أية أزمة لمجرد أننا متحابان. تجاهلنا المشكلات اليومية حتى تراكمت وشكّلت أزمة. طبعاً، كنت أعرف أننا سنتغلب عليها ونبدأ من جديد. أحلم أن نتحرر من كل المسؤوليات بما فيها العمل ونسافر إلى مختلف أنحاء العالم. ولكننا لا نفعل شيئاً يستحق الذكر. ننهض صباحاً، نشرب القهوة، نقرأ الجريدة، نمضي إلى العمل فنغرق في دهاليزه

وتفاصيله، ونعود مرهقين فنشرب كأساً، نـأكل، نراقب التلفزيون، وننـام في مقـاعـدنـا قبل أن نذهب إلى الفراش. وأخيراً اعتدتُ لعب الطـاولـة مع أنني كنت دائمـاً أستخف بهـا وبـأي نوع من التسلية الفارغة. وبالإضافة إلى ذلك، وجدت نفسي أكتب لصديق في الكفرون أطلب منـه منقلة كتلك التي كنـا نلعبهـا في الصغر، فكتب يقول إن اللعبـة زالت من الوجود وإن الجيل الجـديـد لم يعـد يسمع بهـا. بعـد هـذه التطورات في حيـاتي علّقتْ حبيبتي، «إنـك تعود إلى أصولك. أصبحت تلعب الطاولة، وتحمل مسبحة وتريد منقلة. مستقبلـك أمـامـك. غـداً تـدخّن نرجيلة وتلبس سروالاً».

مضت على زواجنـا ست وعشرون سنـة، وبعـدَ أشهر نحتفـل بمرور سنـة أخرى. تُرى نحتفل ؟ كم فكّرنا أن نحتفل بيوبيلنا الفضي، ولكننـا انشغلنـا بـأمور أخرى. قلت لنفسي : بلا مفاجآت، لأشاركها في البحث ونخطّط معاً.

تباحثنـا وقرّرنـا أن يكون الاحتفـال متواضعـاً وبسيطـاً كعرسنـا الـذي اقتصر على دعوة بعض الأهل. أمضينا إجازات سنوية جميلـة، إنمـا قصيرة، بـالسفر إلى أنحـاء عـدة من العـالم، وكنا نعود دائماً لنستأنف حيـاتنـا القـديمـة الرتيبـة، ونتتبع أخبـار موت البلاد البطيء كموت أمي : مزيد من المـآسي، من التفتت حتى يتقـاتل الإنسـان مع نفسـه إذا لم يجـد من يتقـاتل معه، من الكفاح العبثي، من الانهزامات التاريخية، من الانحـدار إلى مستويـات من الهزال لم نكن نتصور أنه يمكن الوصول إليها.

وأخيراً تعمّقت الأزمـة بـدل أن تنفرج. بعـد أن لجـأنـا للنـوم، نهضت أمي من فراشهـا وتجولت دون هُدىً في البيت. ولأسباب نجهلهـا هبطت السلم إلى غرفـة سفلى دون أن تشعل الضوء فسقطت عدة درجات. اصطدم رأسها بالحـائـط والحـاجز الحـديـدي وهمـدتْ في أسفل السلم. سمعنا ارتطامها المتكرر فركضنا نستطلع مـا حـدث. يرقـد جسـدهـا الصغير فوق رأسهـا وتتنفس بصعوبة. أضطربُ، كما اضطربتُ أمام طائر الحوم الجريح، لا أدري ما أفعل. أحملها إلى فراشها وتنادي حبيبتي الإسعـاف فيحضر تواً ويحملهـا إلى المستشفى. نلحقهـا ونجلس في ممر قسم الطوارئ ننتظر الحكيم. ننتظر لـوقت طـويـل. يـزداد اضطرابهـا ويـزداد اضطرابنـا. يقبل متباطئاً. يأخذونها لقسم التصوير بالأشعة. يطول الانتظـار مرة أخرى. اجتـازت عقـارب السّاعة الثانية عشرة، ثم الواحدة بعد منتصف الليل، ثم الواحدة والنّصف. يعود الحكيم ليخبرنـا أنها كسرت ساعدها ومعصمها وربما أثرت الصدمات برأسها تأثيراً بالغاً.

أتمدد على كرسي قرب سريرها طيلة الليل. يبلغ اضطرابها أقصاه فتحضر الممرضة وتخدّرها وتربطها إلى السرير كي لا تسقط. تمر أيام. تمر ليال. يقول الحكيم إنّهُ لا يستطيع أن يفعل أكثر من جفصنة ذراعها المكسور، ويضيف إنها قد تعيش في هذه الحالة سنوات كما يمكن أن تموت في أية لحظة.

منذ تلك الساعة وهي تعيش في سديم فسيح بين الوعي واللاوعي، بين الموت والحياة، بين الغيبوبة وشبه اليقظة، بين الصمت المطلق والاضطراب المطلق، بين التعلق بالحياة والرغبة بالعودة إلى التراب. لا تدرك ما حصل لها وأين هي ومن نحن. تنحذف من وعيها فتهيمن على وعينا. تستدعي أسماء عزيزة من ماضيها السحيق. غاب الحاضر فاستيقظ الماضي. تنادي أخواتها لطيفة ونظيرة وندى، وخالها رشيد، وخالتها كلثم، وبنات خالتها خشفة وبرباره، وصديقة الطفولة فضة.

واستبشرتُ مرّة أنها تستعيد وعيها، فقد سمعتها تسأل الله بصوت مسموع لماذا ماتت أمها قبل أن تعرفها ولماذا مات زوجها شاباً ويرفض أن يأخذ روحَها هي ويريحها من العذاب.

سألتها من هي فقالت : أم حليم.

طرت من الفرح وسألتُ : وأنا من أنا ؟

- أنت حليم، حشيشة قلبي

- أنتِ حشيشة قلبي.

قبّلتُ جبهتها، وجهها، يدها وأنا أردد، «عفاك يا أم حليم عفاك»، وأعطيتها قطعة من الحلوى مُطمئناً أنني لم أُحذَف كلّياً من وعيها. وتسألها حبيبتي : وأنا، من أنا ؟

تبتسم بصمت. يبدو أنها تعرفها ولكنها تبحث عن اسمها دون جدوى. ولما كرّرتْ حبيبتي سؤالها قالت أمي : أنتِ الغالية، أنت الآدمية بنت الأصل.

- طيب شو اسمي ؟

- اسمك، اسمك ؟ نسيت يادلي. اسمك ندي من عند ربي.

ويسأل أخي : وأنا، من أنا ؟

- أنت. أنت تعرف من أنت. ليشْ عمّ تسأل ؟

نضحك، نحزن، نبكي، نبتسم، وأجد نفسي أواجه الله وجهاً لوجه : اسمع : أريدكَ أن تشرح لي مقاصدك. لماذا تعذّبها ؟ لماذا هي بالذات ؟ كيف تنسى كم صلّت لك مرات في النهار الواحد ؟ كم أشعلتْ لك شمعاً وأحرقت بخوراً ؟ كم قدّمت لك نذوراً ؟ هي لا تجرؤ

على مثل هذه الأسئلة. تعتبر التساؤل كفراً. لماذا تخاف التساؤل ؟ لماذا تعاقبها ؟ لِمَ كل هذه القسوة ؟ لا تستحق. لا أظن أنها ارتكبت أخطاء لم يرتكب أسوأ منها أنبياؤك. لماذا يا الله ؟ كم مرة تضرّعتُ إليك من أعماق قلبها : دَخِيلَك مِنْ وقْعِتِي لِحفْرِتِي. دَخيلَك اسْتُر شِيبَتِي.

أما زلتَ على قيد الحياة ؟ متى ولدت ؟ كم مليون سنة ضوئية تبعد عن الإنسان ؟ هل وُلدتَ قبل الإنسان أو بعده ؟ مَنْ خلق مَنْ ؟ لماذا موت أبي السريع في ذروة الشباب، وموت أمي البطيء الذي لا يأتي ؟ هل تعاقبني بموته وحياتها ؟ تستعملها وسيلة ؟ لماذا العقاب ؟ لا أفهم ! حقاً، إنني لا أفهم. أريد أن أفهم. من الأفضل أن تجيب لأنني سألحّ بالسؤال. إلى متى تتهرّب ؟ كم سنة ضوئية تبعد عن الإنسان ؟ لماذا لا ترحمها فتتركها تموت وهي المؤمنة بكَ إلى أقصى وأنقى حدود الإيمان. ناضلتْ كثيراً في حقلك. أنكرتْ نفسها فمارستِ الأُمُومة على أسمى مستوياتها. هي تقول إنك تجرّب خائفيك. لماذا تجرّب خائفيك ؟

لا أتوقع جواباً، فأواجه الطبيب : الطب تقدم كثيراً حتى يستطيع أن يؤجل موتها لزمن طويل دون أن يشفيها. لا يشفيها ولا يتركها تموت بسلام. لماذا هذا العلاج الذي لا يشفي ؟ لماذا تصر على إبقائها في هذا السديم المتناهي بين اللاحياة واللاموت ؟

ويجيبني الطبيب في حين لم يجبني الله موافقاً على تشخيصي ومعلناً عجزه. أعلن عجزي. الله يعلن عجزه بصمته وبُعْده. يطول الموت البطيء، يطول كالظل عند الغروب. يتحول إلى شبح جبار يفرض ظلمته على العالم. متى الغروب ؟ متى الخلاص ؟

بقدر ما أسأل يتكاثف الغموض. بقدر ما تحذفني من وعيها تهيمن على وعيي. بقدر ما تضعف أحبها وأتعلق بها. أساهرها وأستيقظ معها.

وخطر لي أن هناك سبباً آخر لاضطرابي الهادئ حالما توقفتُ عن مواجهة الله والطب، إله هذا العصر المريض.

اقتحمتْ مخيلتي، حالما خرجتُ من المستشفى وتمشيتُ على ضفة النهر، صورٌ من فيلم وثائقي كنت قد شاهدته ليلة أمس :

قطعان من الثيران والأبقار الوحشية تسرح في بَرَارٍ واسعة، تتناطح بقرونها الضخمة الحادة، تتناكح دون خجل في الهواء الطلق، تأكل غصون الأشجار والأعشاب دون عناء، وتتمدد في الظل بكسل.

وتهاجم قطيعاً، فجأة، مجموعةٌ من الذئاب. تطارد عجلاً صغيراً فتندفع أمه وحدها للدفاع عنه. انسحبتْ بقية الثيران والأبقار إلى مكان أمين وراحت تراقب المطاردة رافعة آذانها وأذيالها في الهواء الطلق.

دافعتْ الأم دفاعاً مستميتاً، وتمكنتْ وحدها أن تفرق شمل الذئاب عدة مرات، ولكنها كانت تعاود الهجوم والمطاردة متبعة استراتيجية واضحة : توزعت الذئاب المهام فهاجم بعضها الأم لتبعدها عن عجلها الصغير، وهاجم البعض الآخر العجل. تحتدّ المعركة وتطول والثيران الكبيرة تراقب دون تدخل مذهولة.

ويقع العجل فريسة فتعلن الأم يأسها وتلتحق ببقية القطيع دون أن تلتفت إلى الوراء.

وأواجه العربَ كما واجهتُ الله والطب : فلسطين تسقط فريسة. بيروت تتساقط. البصرة مهددة بالسقوط. الجنوب اللبناني محتل. لماذا الأم وحدها تقاوم ؟ أيتها العواصم العربية الثيران. تشمخين بقرونك مذهولة تراقبين وجلة، تتناطحين، تتناكحين سراً في الدهاليز، تأكلين الأخضر واليابس، تتمددين خارج التاريخ بكسل بليد.

ما نفع المواجهة ؟ آه من المأساة المهزلة.

□ □ □

سَفَرٌ عَلَى بِسَاطِ الرِّيح
فَوْقَ غَابَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الأَلْوَان

كان يوماً خريفياً رائعاً تحوّلتْ فيه مدينة واشنطن إلى غابة كثيفة من الألوان الزاهية المتموجة المتداخلة بعد صيف حار. تماماً كذلك اليوم الذي شهدتَ فيه مصرع طائر الحوم في الكفرون. كان علي أن أسافر للاشتراك في مؤتمر بدل أن نأخذ فرصة ونغتسل من هموم تتراكم في الداخل مثل غيوم سوداء.

اتصلتُ عدة مرات بقسم الحجز لإحدى شركات الطيران قبل أن يجيبني صوت امرأة متعب : أنا كاثي، هل أستطيع أن أساعدك ؟

- نعم، كاثي، أريد أن أحجز مقعداً إلى مدينة نيويورك.

وما إن استفسرتْ عن اسمي ومواعيد سفري وغير ذلك من المعلومات المطلوبة عادة في مثل هذه الحالة، حتى سألتني : عندك لهجة، من أين أنت ؟

- أنا عربي من سوريا.

وتبدل صوتها تماماً : صحيح ؟ حسبتُ ذلك، أنا نصف سورية. تصوّرْ أنني لم أكتشف هويتي السورية حتى السابعة والعشرين من عمري. اكتشفت أنني متبناة وأن أمي الحقيقية سورية وأبي يوناني. آه، لو تخبرني عن سورية.

- هذا يحتاج إلى لقاء. متى اكتشفتِ أنكِ سورية ؟

- آه، حقاً، أنك عربي. تريد أن تعرف عمري.

- لا. لا. أردتُ أن أعرف كم حاولتِ أن تكتشفي أصولكِ.

- لم أحاول كثيراً. لا أعرف كثيراً من العرب وليس عندي وقت للقراءة. قل لي هل أنتَ شيخ عربي ؟

- أنا عربي، ولكنني لست شيخاً.
- هل أنت جميل مثل عمر الشريف ؟ صوتك مثير.
قلت في نفسي إن المرأة مجنونة، ولكنني تابعتُ الحديث بشغف : لستُ جميلاً.
- وأنا لستُ جميلة. قل لي، فهمت أن السوريين تجار. أنا لست تاجرة ولا أحب التجارة والتجار.
- وأنا أيضاً لا أحب التجارة. أنا ابن قرية وأبي فلاح أو بالأحرى مكاري. وأمكِ أنتِ يجب أن تكون على الأغلب من قرية سورية.
وفاجأتني بسؤال آخر : هل عندك حريم ؟
- الأشياء تغيّرت كثيراً. انتهى عصر الحريم. بالمناسبة الشعب لم يكن يملك حريماً.
- لا، أرجوك، لا تخبرني أنكم أصبحتم غربيين. لماذا تتغيرون ؟ أتمنى لو أن أمي لم تأت إلى أميركا. لو بقيت في سوريا. لو ولدتُ ونشأتُ وعشتُ في قرية سورية قريبة من الناس والأرض. أفضل لو كنتُ حرمة في عائلة على الوحدة القاتلة. هنا الحياة تهدّم الإنسان. الوحدة تأكله من الداخل. لا يكفي أن تملك كلباً. نحن آلة. نأكل ونشرب وننام كل بمفرده مثل آلة. لماذا تغيّرون الأشياء ؟ يجب أن تحافظوا على ثقافتكم.
- إننا ثيران أيضاً.
أضحك دون أن أُفسر. لا شك أن المرأة مجنونة، والجنون فنون. جنونها طريف. أسمعُ صوتها ملحاً : أرجوك تكلم. صوتكَ عميق دافئ جميل. هل أنت جريء ؟ صوتك جميل حقاً. تكلم. لماذا لا تسجّل صوتك ؟ ألوف النساء تتمنى .أن تسمع صوتاً مثل صوتك. سجّل اسطوانة. تبيع آلاف النسخ. وتصبح غنياً وتعود إلى سورية وتستعيد زمن الحريم. وإذا أردت أنضمُّ إلى حريمك.
أدركت آنذاك أن الأمر تجاوز حدود المعقول واللا معقول ففكرت أن أشكرها وأنهي المكالمة. ولكنني وجدتُ نفسي أسأل : ما رأيك أن نلتقي ؟
- لا. لا. حياتي كلها خيبات أمل متواصلة. أستطيع أن أستغني عن خيبة أمل إضافية. كنت أعتقد أنني إنسان معيّن واكتشفت أنني إنسان آخر بعد 27 سنة من عمري، لا أتوقع أن تكون جميلاً مثل صوتك. هذا لا يهمني كثيراً. ما أخافه هو أن أخيّب أملك أنت. لا تؤاخذني. لنغير الحديث. ماذا تعمل ؟
- أنا روائي.

- آه. أتكلم إلى مـؤلف !؟ في حيـاتي لم أتكلم إلى مـؤلف ! لا أصـدق ! سـوري ومؤلف ! أنت كل ما أسعى إليه. ماذا تكتب ؟
- لا أعرف أن أجيب على هذا السؤال. ماذا تقصدين ؟
- تكتب أدباً حديثاً أو قديماً ؟
- حديثاً، كما أظن.
- لا. لا. خيّبت أملي. لا أحب الأدب الحديث. أحب الأدب الكلاسيكي. لابـد من أن يكون المؤلفون المحدثون مجانين مثل كتاباتهم.
- لا تنسي أننا في عصر الجنون.
- صحيح. رحلة ممتعة.

قالت ذلك وأغلقت التلفون. نسيتُ أن أسألها هل حجزت لي مكاناً على بساط الريح. فكّرتُ أن أتصل بها من جديد، ولكنني قررتُ أن أترك طرافتها سؤالاً غامضاً. اقتنعتُ أن المرأة لم تكن تسخر أو تمزح، ولكنها لم تكن جادة أيضاً.

ربما كانت تسخر، أو ربما سأسافر على بساط الريح لأول مرة.

ذكّرتُ حبيبتي بالحادثة، فأكدت لي مرة أخرى أن المرأة جادة، وأضافت : أنت تعرف أن المهازل، الأساطير، الأحلام، أكثر الأشياء جدية وصدقاً. كم ردّدتَ ذلك حين كنتَ تقرأ فرويد ؟

- هذه حقيقة أزلية، لا شك بذلك.

قلتُ ذلك مع أنني أكره تعبير «لاشك بذلك»، وأضفتُ مفسراً : «طالما سمعتُ حكايات كنت أعتقد جازماً أنها لا يمكن أن تحدث حتى حدثت لي فعلاً، مثل قصة دخول يونان بطن الحوت وخروجه منه. اعتبرتُ القصة مجرد خرافة حتى دخلت بطن وحش أرهب من حوت هو مدينة نيويورك».

□□□

دَهَاليزُ النظَام

أغلقتِ الطائرة أبوابها، فبكّلتُ حزام السلامة وتراخيتُ في مقعدي مطمئناً بعد فترة غير قصيرة من الاضطراب والترقب. سررتُ خصوصاً أن الطائرة تحرّكتْ في الوقت المعيّن فلن تفوتني الطائرة الأخرى التي ستقلني من نيويورك إلى مدريد فالدار البيضاء حيث سأشترك في مؤتمر كان قد بدأ.

ببطء توجهنا إلى المدرج، إلا أن الطائرة لم تلبث أن حادت جانباً وتوقفت فبدأ الاستفسار. شرح القائد باقتضاب أن عاصفة ممطرة تجتاح نيويورك فقرروا أن ينتظروا هنا.

ناديتُ المضيفة مضطرباً وجلاً وقلت إنني في هذه الحالة أفضل عدم متابعة رحلتي لأنني حتماً لن أتمكن من الوصول قبل موعد إقلاع الطائرة التي ستقلني إلى مدريد. أكّدَتْ لي أن النزول مستحيل، ولكنها حاولت أن تطمئنني بأن جميع الطائرات ستتأخر وبأنهم سيتمكنون من إعادة ترتيب مواعيد سفري في حال إقلاعها قبل وصولي.

مرة أخرى استرخيتُ في مقعدي دون أن أتمكن من التغلب على اضطرابي الظاهر. أدركتُ أنه ليس من اختيار ولابد من أن أسلّم نفسي لقدر الآلة، فقررت أن أشرب كأساً وأقرأ وأصغي للموسيقى. وليحدث ما يحدث. عبثاً أقنع نفسي بأنني «تحول دائم» على النقيض من العربي الذي يقول «أنا ما كنتُ»، ومن الأمريكي الذي يغني «أنا ما أنا». لأغني إذن مع الفرنسي «ما سيكون سيكون».

أطلبُ كأساً من الويسكي فأجده أقرب إلى الماء. أصغي للموسيقى دون أن أتمكن من التغلّب على الضّجر. أقرأ دون أن أفهم. وأنتبه أن سيدة عجوز تستأذنني بالدخول إلى مقعدها قربي. أقف لها باحترام وارتباك. وقبل أن تستقر في مقعدها تقول بدعاب : آسفة لخيبة أملكَ. كنتَ ولاشك تفضّل أن تجلس قربكَ صبيةٌ جميلة وليس عجوز قبيحة.

أضحك دون أن أجد ما أقول وأعود أكتب بعض ملاحظاتي. وتتفحص ما أكتب فتسأل : تكتب بالعبرية ؟

- لا بالعربية.

وينبسط وجهها كما لو أنها تفاجأت بحقيقة مزعجة، فتشرح لي بعد تردد أنها كانت تحضر لقاء في البيت الأبيض بمناسبة تقليدها وساماً لعملها الدؤوب في جمع الأموال لإسرائيل. ولما تابعتْ حديثها رغم انزعاجي الظاهر، فكّرت أن أقول لها في سبيل النكاية إنني عضو في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ولكنني كنت لا أزال أحتفظ بعقلي. لا فائدة من المواجهة في هذه الحالة. انسحبت إلى عالمي الداخلي كالسلحفاة وانتظرت تحرك الآلة التي ابتلعتني إلى جوفها وترفض أن تفرزني خارجاً فسلّمتها قدري.

وكي أضع حداً للحديث، وضعت السماعة على أذنيّ، وبحثت عن محطة الموسيقى الكلاسيكية. كم كان سروري عظيماً عندما أدركت أنني أصغي لأُوبرا ريتشارد فاغنر «الخاتم».

نزعتُ السماعة تواً وسألتُ جارتي : هل تحبين فاغنر ؟

- أكرهه.

- لماذا ؟

- لأنه نازي.

- تعرفين متى عاش ؟

- لا يهمّني.

- يجب أن يهمّك. توفي عام 1883، ست سنوات قبل أن يولد هتلر. كان فاغنر يحلم بقيام مجتمع اشتراكي. ويقال إنه حين كان قائداً للأوبرا الملكية. تجرأ أن يواجه ملك ساكسوني وطلب منه أن يقف إلى جانب الطبقات العاملة المستغلّة. ماذا كانت النتيجة ؟ أمر الملك بنفيه لزمن بعيد. في منفاه كتب كراساً حول الفن والثورة وقصيدة الخاتم.

وتوقفتُ عن الكلام فقد أدركتُ أن السيدة وضعتْ السماعة على أذنيها. على الأغلب أنها تستمع إلى فرانك سيناترا. أتجاهلها بدوري وأعود أصغي لفاغنر مأخوذًا بذلك الصراع العنيف بين الحّب وشهوة القوة. أعرف تماماً أن الإنسان هو المسؤول عن إنقاذ الآلهة كما كان مسؤولاً عن خلقهم. لن ينقذ الله أمي قبل أن أحرّرها من تسلطه على مصيرها. هل أنقذه بموت أمي ؟ من ينقذ مَنْ أيها المؤمنون الذين ورثتم إيمانكم كما ورثتم أسماءكم ولغتكم

وجنسكم ؟ عكس ما تقولونه، الآلهة هم الذين سقطوا بالخطيئة والإنسان وحده هو الذي سينقذهم. أوافقك كلياً يافاغنر. أنت على حق أن الأرض الأم هي مصدر الحكمة، والفنان يعيش في أعماله. موته حياة عمله. ولكن ما معنى اللا حياة واللا موت ؟

أسأل فاغنر بعد الكأس الثاني (ودون أن تسمعني جارتي) : هل شاهدتَ طائر الحوم ؟ هل شاهدتَ مصرعه ؟ لو فعلتَ ذلك لأوحى لك بأعظم موسيقاك. أعرف أنك لم تفعل. مَنْ مِنَ المبدعين أعطى أعظم ما يمكنه أن يعطي ؟ لذلك اسمح لي أن أخبرك شيئاً عنه. أنا متأكد أنك تحب أن تسمع شيئاً عنه. أنت تحب الرموز القوية. له علاقة وثيقة بالريح، فجناحاه الكبيران أشرعة تمخر به بحر السماء. عنقه مثل جسر بين جزيرتين. كبير، متكبر، عنيف، هادئ داخل العواصف، مهاجر باستمرار بين الجنوب والشمال (بين مخاطر الجنوب ومخاطر الشمال) مدفوعاً بالعطش والجوع والشبق والدفء. كلما عبر عالماً تكشّف له عالم آخر. له تاريخ مع المسافات الشاسعة والآفاق المتفتحة عن آفاق أرحب من رؤياه. وله أيضاً تاريخ مع الإنسان. عرفه صياداً ماهراً فنشأ على الحذر منه، ولكن الحذر لم يخفّف كثيراً من رغبته الجامحة بالمغامرة والهجرة دائماً بين مناخات الأرض.

ولاحظتُ أنني أتكلم إلى فاغنر بدل أن أستمع لموسيقاه، فأصغيتَ ولكن خيالي عاد يسافر بي إلى أجواء أخرى.

بعد انتظار ساعة ونصف الساعة وأنا مأخوذ بتخيلاتي، أعلن القائد أن العاصفة توشك على الانتهاء وأنهم سيبدأون بالتّحرك خلال دقائق.

وأفرزتني الطائرة إلى الخارج في نيويورك، فوجدت أن طائرتي الأخرى كانت قد أقلعت. عبثاً حاولوا إعادة ترتيب مواعيدي واستعادة حقائبي، فأدركتُ أن الآلة لم تلفظني خارجاً وأنني أسعى جاهداً ضمن آلة أكبر. أشكو للمسؤولين، بعد أن أقف في صفوف طويلة قبل أن أصل إليهم. فأكتشف أنهم هم أيضاً قطعة صغيرة في تلك الآلة الكبرى. لم أجد بينهم من يتحمل أية مسؤولية أو حتى أن يتكلم حول مشكلتي لأنها خارج اختصاصاتهم الضيقة. كل شخص مسؤول وغير مسؤول في الوقت ذاته. لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً لتصحيح الخطإ.

تراكضتُ في دهاليز النظام الرهيب وحيداً حائراً قلقاً غاضباً. وتمهلتُ مدركاً أن كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أنتظر حتى تفرزني الآلة إلى الخارج مشوّهاً في صميم داخلي.

وخلال الانتظار اكتشفتُ فجأة أنني أضعتُ فلوسي فضاع صوابي. فتّشتُ جيوبي باضطراب مرات فلم أجد شيئاً. هل أوقعتها ؟ أين ؟ هل نُشلَتْ مني دون أن أحس ؟

اتصلتُ بميه لكي تستضيفني تلك الليلة فأقبلتْ ملهوفة وانتشلتني مشوهاً من فك الآلة. حملتني إلى شقتها أشلاء ووضعتني سوية قطعة قطعة. شربنا وتناولنا العشاء وأصغينا لموسيقى هندية فيما تحدثني عن تجاربها ضمن آلة الزواج الذي دخلته منتشية وتتراكض في دهاليزه الآن بحثاً عن مخرج أو مدخل. وأثناء الحديث كنت أستعيد صورتها فتاة مليئة حيوية مرحة ترقص حافية في سهرات عامرة.

وجدتُ نفسي أضحك دون انقطاع عندما خطر لي أن الذي نشلني اتصل بصديقته ودعاها إلى مطعم فخم ثم إلى مرقص ونام معها في فندق من الدرجة الأولى على حسابي.

شاركتُ ميه الخاطرة التي اخترقتْ ذهني مثل البرق في ليلة مظلمة، فقالتْ : المهم أنك خرجتَ من بطن الحوت يايونان الكفروني.

- نخرج من حوت لندخل آخر.
- من المتشائم أنتَ أم أنا ؟
- لا أنتِ ولا أنا، النظام نفسه هزيل.
- ربما تريد مزيداً من القهوة ؟
- نصف فنجان، أرجوكِ. قهوتكِ طيبة.

وفي اليوم التالي تمشيتُ في الجادة الخامسة بين «الفيليج» و«السنترل بارك» أراقب الناس وواجهات المحلات في محاولة للتحرر من الاضطراب الذي ولّده النظام في نفسي كما أُحلُّ الخيوط التي انلفّت حول داخلي.

وفيما أتمشى أبصرتُ فجأة رجلاً أسود يتقدم نحوي، ويقصدني بالذات. حاولتُ أن أتجنّبه ولكنه أشار لي : أنت !

وتوقفت لا أدري ماذا أقول أو أفعل. تقدم وسألني : يهودي ؟

قلت : لا.

- إيطالي ؟
- لا

وابتسم مسلّما بالعربية : السلام عليكم.

وشعرتُ بانشراح هائل فأدركت أنني مستعد للذهاب إلى المطار. عدت في طائرة مروحية صغيرة حسبت مرات أن العاصفة ستحطّمها، فتناولتُ مفكرتي وكتبتُ فيها : «لا أستغرب أن يحدث لي شيء، بما فيه الموت، بعد 24 ساعة مليئة بالمفاجآت».

ولما خرجت من جوف الطائرة تمنيت لو أن السيدة المجنونة حجزت لي مكاناً على بساط الريح.

□ □ □

المَدِينَةُ المُلَوَّنَة

انتهت العاصفة، وعـادت أشعـة الشمس تحتضن بشغف أوراق الأشجـار الملونـة المتموجـة المتداخلة وتنعكس عنها فرحة بنفسها والعالم.

ومع أن العاصفة في الداخل لم تهدأ، إلا أن أخي حضر دون توقع واقترح أن نخرج فيمـا يبقى هو مع أمي المضطربة. وقبلنا اقتراحه دون تردد.

توجّهنا بلا تصميم نتمشى على ضفة نهر «البوتمك» وسط مدينة واشنطن، فتـذكرتُ لسبب ما يوم أقلعتْ بنا الطائرة من بيروت في طريقنا إلى الولايـات المتحـدة. وفي ومـأة خـاطفـة تراءت لي جبال لبنان كأنهـا تستعـد للقفز إلى البحر، امتـدادات زرقـة المتوسـط تمخره سفن صغيرة، قبرص تسعى في مختلف الاتجـاهـات صـوب اليـونـان وتركيـا وسـوريـا للتغلب على علاقتها المستوحدة مع الموج، جزر أسطوريـة ضـاع يولسس وقـدموس بينهـا مـأخوذين بغنـاء حوريـات البحر السـاحرات، جبـالُ الألب الصخريـة تنزع عنهـا وشـائح الثلج وتتعرى بحضور شبح هنيبعل، أراضي أوروبا الخضراء لوحةً تجريديـة، غيومٌ بيضـاء بلا انقطـاع كـأنها قطعـان خراف ترعى في مروج لا حدود لها فوق المحيط الأطلسي، أميركا غابات كثيفة تخترقهـا أنهر جبـارة.

كانت الطائرة التي تقلّنا حبيبتي وأنا تطارد الشمس التي احتفظتْ بمسافاتها. استيقظنـا قبلها في بيروت، سبقناها أشواطـاً، تلحق بنـا ببـطء، توازينـا سـاطعـة، تسبقنـا دون أن تحوّل أنظارها عنّا، وتذهب لتنام قبلنـا في نيويورك التي لا تنـام. لوقت طويل بـدا لنـا أن الشمس لن تغيب (وكان ذلك أطول لقاء لي معها مدى الحياة)، ولكن زحمة الضوء والناس لم تمنعنـا، حبيبتي وأنا، من التغازل وسط جموع الركاب المرهقة.

تلك كانت خطوةً جازمة باتجاه مصير آخر. عريس للمرة الأولى ومهاجر. دون تخطيط وحسابات باردة هجرتُ العزوبية والوطن، فاعتراني في ومآت عابرة إحساس لا أدرك سوى أنه مزيج غريب من الغبطة والقلق. تزوّجنا قبل حوالي شهر من تلك الرحلة (وكان شهر العسل كأنما ما يزال في بداياته)، وخضنا حياة جديدة. بالنسبة لي، ضاعف السفر إلى أميركا (أو الهجرة على الأصحّ) من هذا الإحساس. في الواقع، لم أحس يوماً أن هجرتي هجرة حقيقية، فانتماءاتي عميقة عميقة ولا مجال للاقتلاع. أما حبيبتي فكانت تعود إلى أهلها الذين كانوا قد هاجروا من زمن واتخذوا أميركا بلداً جديداً.

وفيما نخترق كثافات الغيوم البيضاء فوق أميركا، تذكّرتُ أنني في طفولتي دخلت فجأة كثافات غيوم سوداء تضيئها بروق وصواعق متكررة. كان قد توفي والدي فجأة في الثلاثينات من عمره دون إرث من أي نوع (سوى بغل كان يكاري عليه وبيت حجري، دون غرف، ترابي السطح)، فاضطرت أمي أن تنزح بنا أنا وأختي وأخي إلى مدينة بيروت بعد أن جاهدت عبثاً في القرية مدة سنة أو أكثر. عملَتْ خبّازة على التنور (تتلقى أجورها أرغفة ساخنة) وحصّادة موسمية في مناطق نائية كان أهل القرية يسمّونها «مشرق». ما زلت أحس بالجوع حين أتذكر أرغفة القمح الساخنة المخبوزة في التنور (خصوصاً أننا بعد موت أبي كنا نضطر أحياناً أن نأكل خبز «الخلط» من قمح وذره وشعير وهو خبز الفقراء). نتقاسمها بعد أن نمعس رأس بصلة ورأس شنكليش نغمره بزيت الزيتون. أحسّ الآن بالجوع (مع أنني تناولت وجبة كبيرة منذ فترة قصيرة) لمجرد تذكر الشنكليش والبصل والزيت.

ومهما كان، كنا نقدّر حياتنا ونتمتع بها. عَدَا جمال القرية وطيبة الناس، فقد أفلتنا فعلاً من قبضة الموت الذي قضى على أربعة إخوة وأخوات قبل أن يبلغوا الثانية أو ربما الثالثة، ثم قبض على أبي دون إنذار في وقت كانت أمي تستعيد قواها من مرض عانت منه كثيراً حتى كانت تحسب أنها هي التي ستموت وليس أبي. في الواقع أنه مات بعد أيام قليلة من عودتها من المستشفى في طرابلس. ردّدتْ وما زالت حتى سقوطها أن أبي افتداها، مات عوضاً عنها لكي لا نتيتّم «فيتيم الأب ليس يتيماً»، قاصدةً أنّ الأم لن تتزوج بعد وفاة زوجها بل تنذر نفسها كلياً لأطفالها وثم لأطفال أطفالها.

ولكنها في هذه الأيام ترى جانباً آخر لموت أبي عوضاً عنها. تعتبر أنها أخذت بقية عمره وستعيش بالعذاب وقتاً طويلاً. تسعى للموت فيما تراه يسعى بعيداً عنها.

مرت أشهر على سقوطها المريع فتبخّرت الأحلام وملأت الكوابيس الفراغ. الطبيب ما زال يقول إنها قد تموت في أية لحظة ولكنها قد تعيش في هذه الحال أسابيع أو أشهر وربما سنوات. أعود أتساءل كم تضرعتْ لربها «من وقعتي لحفرتي» ولكن لا يبدو أنه يسمعها. ترى الموتَ رحمةً وتشتاق نفسها للرحيل، أما هو فيصر أن يكون القرار الأخير له. نحن أيضاً نمتلك مصيرها فنقرر متى وأين وماذا تفعل أي شيء. وأصبحنا نحبها في عجزها أكثر مما كنا نحبها في قوتها. ولكن من ناحية أخرى هي أيضاً تمتلك حياتنا إذ تحتاج إلى عناية دائمة. هل يمكن التصالح مع هذا الواقع المرير ؟ كيف التعامل مع مزاجاتها المتقلبة بسرعة هائلة بين أقصى الصمت وأقصى الاضطراب ؟ أقول لنفسي إن أهم ما يجب أن يتعلّمه الإنسان هو أن يعرف متى وكيف ولماذا يموت. هل أعرف كيف أموت في المستقبل ؟ في أي مستقبل أريد أن أموت ؟ هل أدرك متى يحين وقت الرحيل بأناقة وكرامة وطمأنينة ؟ هل سأتمكن من الوصول إلى قرار قبل أن أجتاز ذلك الخط الفاصل فلا أعود أميز بين الخيال والواقع ؟

تتجاوز محنتها بالغناء والصّلاة. ربّما هما الجسران الوحيدان اللّذان يصلان بين الخيال والواقع في حياتها. وأنا لا أعرف الغناء وأجهل خاصة الصلاة. تغنّي بيتاً من الشعر الشعبي :

لولا الصبر والتشبيه جنّيتْ ورافقنا وحوش بالفلا

أفهم أن التشبيه هو الشعر. هو أيضاً جسرها بين الواقع والخيال. ومهما كان ناضلتْ كل حياتها، ولابد أنها ستستمر في النضال حتى الرمق الأخير. ناضلتْ في بيروت كما ناضلتْ في القرية. وعندما وجدتْ عملاً وملجأ نسكن فيه أرسلتْ تستدعينا إليها، فنزحنا دون عناء. كنت حينئذ في حوالي العاشرة وكانت أختي في الثامنة، وأخي في السادسة أو الخامسة. حمّل عمي جميل بعض أغراضنا على بغله «الشموس» ومشينا وراءه في طرق وعرة ضيقة باتجاه بلدة صافيتا، وكانت برفقتنا أم يوسف، وهي أيضاً مترمّلة تعمل في بيروت. انحدرنا أودية وتسلقنا جبالاً وتلالاً، قرب وعبر قرى ومعالم، كثيراً ما ترددتْ أسماؤها على مسامعنا. وكلما عبرنا نهراً، أو بالأحرى جدولاً، كنت أتعرى وأغطس في الماء ثم ألبس ثيابي دون أن أجفف جسدي ونتابع السير. استرحنا عند قمم الرّوابي في ظل أشجار المزارات القديمة، خصوصاً عندما يصبح من الضروري أن ننزع الأشواك من أقدامنا الحافية. نمنا في ظل برج صافيتا وفي صباح اليوم التالي ركبنا بوسطة طرابلس، وكان عدد الدجاج المربوط رزماً رزماً أكثر من عدد الركاب. وقفزتُ فعلاً في مقعدي عندما شاهدت راكباً يصعد البوسطة ومعه جَدْيٌ أصبح

(في جبهته بقعة بيضاء) فحسبته للوهلة الأولى جدياً كنت قد ربيته شخصياً ثم بعناه للحام قبل أيام من نزوحنا. ولما أدركتُ أنه جدي آخر مشابه لأنه لم يعرفني، حزنتُ حزناً شديداً.

وصلنا طرابلس وهبطنا في باب التباني، فعجبت لذلك الزحام العجيب الغريب من العربات والناس والأحصنة والحمير والكلاب والبضائع والحلويات والخضار والفاكهة والنفايات والغبار. أهذه هي المدينة التي كنت أسمع عنها ؟

وتنشقتَ بارتياح عندما ركبنا عربة خيل وتوجهنا إلى التّل فبدت الشوارع تتسع والمحلات تكبر والأشجار تصطف كحراس يستقبلون قائداً كبيراً. وجذبت أنظاري بالدرجة الأولى محلات الحلوى، ولكنني أدركتُ أنني لا يجوز أن أشتهيها كما اشتهاها أخي لأننا لم نكن نحمل أية فلوس. ولم أطلب من أم يوسف أن تشتري شيئاً لنا رغم الجوع فأنا أعرف أيضاً أنها لا تقل فقراً عن أمي. إنما، يجب أن تكون قد أدركتْ ما يجول في فكري، فقد رأيتها تدخل وتشتري قليلاً من الحلاوة.

ومن التل أخذنا بوسطة أكبرَ وأجد وأنظف إلى بيروت. لا أذكر شيئاً هاماً آخر غير التلال الصاعدة من البحر، والأمواج المتكسرة على الصخور مقبلة من مسافات بعيدة، ونفق رأس الشقعة. أذكر جيداً حاجز السنغاليين الذين أوقفوا البوسطة عند مدخل النفق وكانت الشمس قد بدأت تغيب. تلك كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها إنساناً أسود. أنزلونا من البوسطة وطلبوا هوياتنا، الشيء الذي لم أسمع به من قبل. شرحتْ لهم أم يوسف أننا صغار ولسنا بحاجة إلى هويات، ولكنهم أصروا مهددين أن يعيدونا من حيث أتينا. قلتُ في نفسي أين أنت يا يوسف ؟ ليس في البلاد من ينافسك في «قيم الجرن». لو كنتَ معنا هنا لرفعتَ هذا العسكري السنغالي هو وبندقيته إلى أعلى رأسك ورميته من هذا الشير إلى قاع البحر. أستنجدُ بكَ يا يوسف مع أنكَ ضربتَ يوماً عمي فاضطر أبي أن يلقّنك درساً قاسياً في مطلع شبابك. كأنني أراه في هذه اللحظة يضع خنجره في زناره العريض ويحمل دبوسه ويمضي إلى الساحة. لا يستطيع أن يرفع الجرن مثلك ولكنه إنسان لا يهاب وضربة دبوسه لا تُردّ. أنت تعرف أن الزعل لا يستمر طويلاً في الضيعة. يتدخل الناس وتتم المصالحة. لذلك لم يكن عجيباً أن تتحسن العلاقات، لو كنت هنا الآن ! هل كان يجرؤ هذا العسكري السنغالي أن يسألك عن هويتك ؟ وأتساءل الآن (طبعاً لم أكن أملك الوعي لأسأل في ذلك الحين) كيف يتمكن الأقوياء من استعمال الضعفاء ضد بعضهم البعض. ما زالت قوى الاستعمار حتى الآن تستعمل شعوب العالم الثالث ضد بعضها البعض. لاشك أنك تسمع كيف تستعمل حكومة

جنوب أفريقيا العنصرية السود ضد بعضهم البعض ؟ وكيف تتدخل أميركا وإسرائيل لإطالة الحرب بين العراق وإيران. وهذه الحرب اللبنانية لماذا تطول ؟

لست أدري إذا كنتَ تفكر بهذه الأمور. المهم، أخبرك أنه بعد إلحاح والدتك، تجاهل السنغالي الأمر وسمح لنا أن نتابع السفر إلى بيروت التي أصبحت قريتي الثانية. وصلنا إليها في وقت متأخر من المساء في مطلع خريف 1942، وقد بدأ ذاك الصراع الخفي بين العتمة والمصابيح الخافتة التي طُليتْ بلون أزرق داكن خوفاً من الغارات الجوية.

أنزلونا من البوسطة في ساحة البرج، أو بالأحرى في زقاق يتفرع منه إلى الشرق. سمعتُ همسات أننا في وسط السوق، ولم أفهم تماماً ما يعني ذلك ولكنني استغربت مشهد النساء الفاتحات أفخاذهن دون حياء.

وكان علينا أن نتوجّه إلى شارع الحمراء في رأس بيروت. مشينا وراء أم يوسف نحو ما أسمته محطة الترام، وكانت أختي تلبس قبقاباً خشبياً أحدث أصواتاً مزعجة في تلك الشوارع البلاطية الصامتة المعتمة. قلت لها، مازحاً، أن تنزع قبقابها كي لا تقلق المدينة فيخرج علينا الحرس ويأخذوننا إلى السجن. استجابت بسرعة، إذ نزعتْ القبقاب ووضعته في رزمة صغيرة كانت تحملها على رأسها. لا نزال حتى الآن نذكّرها بذلك ونضحك معاً. وتفاجأنا بقدوم الترام فكان غير ما توقعته. ازداد إحساسنا بالرهبة والدهشة. ولكن كان علينا أن نندفع كما اندفع الآخرون وتسلقناه دون تردد. دخلنا جوفه كما دخل يونان بطن الحوت، فإذا للحوت هذا نوافذ. تأملت زجاجها المطلي بلون أزرق داكن فحسبت أن المدينة ملونة. ولم تتغير هذه الصورة الأولى في ذهني مع أنني تجولتُ في المدينة صباح اليوم التالي وأدركت أنها بلا لون. ترى لماذا ما تزال تلك الصورة الأولى عالقة في مخيلتي حتى الآن ؟

□ □ □

الاحْتِـرَاق

أنظر مـأخوذاً إلى عـاملـة المصعـد السوداء دون أن أصغي لشروحهـا حـول نصب جـورج واشنطن التذكاري. ردّدتُ بآلية مـدى ارتفـاع النصب (الأمر الـذي لم أسجلـه لأنـه لا يهمني) وكونـه أكبر نصب حجري في العـالم، فخطر لي أن أقـاطعهـا وأخبرهـا بـأنني راقبتـه من تلـة الكونغرس فبدا لي «المول» مثل رجل ضخم (كتلك المخلوقات العجيبة في حكاياتُ ألف ليلـة وليلة) تمدّد على ظهره ورفع عضوه متوتراً في الهواء. طبعاً كبتُّ تلك الخاطرة الشاذة.

وجدت عاملة المصعد السوداء جميلة كبدايات الصباح في شتاء الكفرون الماطر. لهذا لم أتمكن من أن أنزع عينيّ عنهـا. تحـاول أن تتجـاهل نظراتي لبرهـة، ولكنهـا استـدارت فجـأة وحـدّقت بي معبّرة بوضـوح كلّي عن استغرابهـا وتبرمهـا فحـوّلتُ نظراتي عنهـا بسرعـة تجنبـاً للإحراج. حوّلتها إلى فتى أشقر جلس في زاوية المصعد يعلك بسرعة، مفصولاً عن العالم.

وسألتني حبيبتي هامسة : تفكّر أنه مستقبل أميركا، أليس كذلك ؟

ـ مللتُ مثل هذه التعليقات.

ـ نشكر الله.

ـ ولكنني أراه سنبلة هرّتْ حبوبها وطفت فوق مياه ملوثة.

ـ يستحيل أن تملّ.

ـ أرى رؤى وأسمع نبوءات.

ولما استخفتْ حبيبتي بكلماتي دون أن تهتم بالتعليق عليهـا حتى بتلويحـة من يـدهـا، عدتُ أتأمل السوداء الجميلة كصباح شتائي في ضيعتنا. تأملتُها ملياً ومأخوذاً كما كنت أتـأمل الجداول إلى أن صوّبتْ عينيهـا عليّ كفوهتي بنـدقيـة. ارتعـدتُ بخجل ظـاهر. أتسـاءل لمـاذا

غضضتُ النظر وانسحبتُ إلى عالمي الداخلي بدل أن أواجهها مبتسماً وأقول شيئاً طريفاً. لا أحمل لها غير الإعجاب، فلماذا الجبن.

وأسمع حبيبتي تسألني : كم قالت ارتفاع النصب ؟

ـ طول ميكادو !

تعرف حبيبتي أنني أشير إلى رجل طويل رفيع في الكفرون أسموه أو لقّبوه بالميكادو في زمن ازدهرتْ فيه فكرة الشرق.

وفرحتُ أن المصعد توقف قبل أن يتاح لحبيبتي أن تعلّق، فلملمتُ نفسي وخرجنا إلى النوافذ نتأمل واشنطن تتعرى أمامنا بإغراء ودون كبت : نهر «البوتمك» يتلوى مثل راقصة شرقية، يتفرع مثل الشرايين، يحتضن جزراً صغيرة تكتسي غابات كثيفة، يفصل واشنطن المدينة ـ الرجل عن فرجينيا الولاية ـ المرأة التي تعلن أنها للعشاق دون تمييز ظاهر، ويستدعي في ذهني جداول الكفرون التي نسّميها أنهراً.

أقول لنفسي : آه منك يا توفيق.

يجب أن أكون قد تفوهت بذلك الاسم بصوت مسموع، فقد سألتني حبيبتي : من هو توفيق ؟

ضحكتُ وذكّرتُها بحدث في الماضي البعيد : في صغري كنتُ أهرب من المدرسة وألحق رعاة الماعز. لحقتهم مرة إلى «سهل الملوّعة» الذي يشرف على وادي الكفرون. جلستُ على صخرة مرتفعة قرب «عش الشوحة» وسرحتُ بعيداً وعميقاً في تأملاتي. لاحقت الجداول التي نسميها أنهراً إلى ينابيعها، وتسللتُ مع مياهها إلى جذور الأشجار، فبدأت أنمو مثل صفصافة. فرّختْ في جلدي أغصانٌ وأوراقٌ خضراء وأزهارٌ برّية. تحوّلتُ إلى دلبة ودالية وسنديانة وتينة في صخرة. وفجأة أعادتني إلى الواقع صفعة قوية على رقبتي. التفت فإذا هو توفيق يرغي بغضب محموم : عنزاتك رعت نصبات الزيتون ياكرّ.

واعتذر توفيق عندما أدرك خطأه، فالماعز لم تكن لي، ولم أكن مسؤولاً عنها. زارنا في المساء يحمل عنباً وتيناً وأكوازاً خضراء من الذرة. في كل مرة أزور الكفرون أفكر أن أزورك في الملوعة يا توفيق. شخت لاشك. كم أتمنى أن أتعرف إلى عائلتك.

ننتقل إلى نافذة أخرى وننظر إلى مبنى لنكلن التذكاري. أراه يجلس إلى الأبد متأملاً بصمت التاريخ الذي أفلت من قبضته واتخذ أشكالاً لم يكن يحلم بها. يبدو لنكلن حذراً، كأنما يلصق ظهره إلى الحائط خوف أن يطلق عليه «بوث» رصاصة أخرى. لا يلتفت إلى

«جنرال لي» يشرف عليه من رأس تلة على الضفة الأخرى. يراقب الوفود تتسلق الدرجات العديدة فتصل إليه متعبة. تقرأ كلماته دون إمعان، وكأن لا علاقة لها بحياتهم الحاضرة. أسأله هل كان يخدع نفسه أم الآخرين، عندما تحدث عن حكومات من الشعب وبالشعب وللشعب، وأتحداه أن يعترف أن هناك طبقات حاكمة وطبقات محكومة. يستخف بالتحدي فأتهمه بأنه يخاف أن يُتهم بالماركسية.

يتضايق مني ومن تلك الوفود المزعجة. ولكنه ينسحب إلى عالمه الداخلي مستخفاً ويلتجئ إلى الصمت. أراه يتساءل لماذا أقاموا له هذه البركة ـ المرآة. هل أرادوا أن يوحوا له بأن يتأمل نفسه ويعيد النظر باستمرار ؟ كلماته محفورة على الصخر ولا يمكنه أن يعيد صياغتها. لماذا أقاموا وزارة الخارجية قربه ؟ الأمر يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً لو أقاموا له نصباً تذكارياً قرب البيت الأبيض، فيضطر أن يراقب خلفاءه ينامون في فراشه ويرددون كلماته خارج محتواها، ومجردة من مدلولاتها. قُلْتَ إنه لا مهرب من التاريخ إذ يسجل الطريق الذي نسلكه. أخبرك أن خلفاءك سلكوا غير الطريق الذي أردت.

ننتقل إلى نافذة أخرى : وأنت يا جفرسون أتّهمك بالإصرار على مُثلٍ لم تعد تفعل في التاريخ. لو تراقب بدقة الكونغرس من موقعك الاستراتيجي لاستنتجتَ ذلك بسهولة فائقة. لا تؤاخذني إذا سألتك سؤالاً محرجاً. هل كنتَ تملك عبيداً حين تكلمت عن المساواة كحق طبيعي ؟ ترى استوعبتَ التناقض وتجاهلته، أم أن مفهومك للإنسان لم يكن رحباً وواسعاً كفاية ليشمل السود والهنود الحمر وغيرهم ممن يقعون خارج الدائرة ؟ هل يتساوى الناس ؟ جميع الناس ؟ ماذا كان موقفك ضمنياً من العبودية ؟ هل تستمد الحكومات قوتها من إرادة المحكومين ؟ أي محكومين ؟ هل يحق للشعب أن يلغي الحكومات ؟ هل يحق له أن يلغي الأنظمة ؟ وفي الوقت الحاضر، هل يحق لمجتمعات العالم الثالث أن تصنع مستقبلها ؟ ما رأيك بالمجتمع الأميركي في الوقت الحاضر ؟ هل أنت جسر بين أوروبا وأميركا وبين القرن الثامن عشر والتاسع عشر ؟ هل لديك أية أهمية في الوقت الحاضر ؟

لا تؤاخذني. أعرف أن هذه الأسئلة محرّمة، ولكنها تطاردني كظلي. مسكون بها. لا أحاول إحراجك أو إظهار تناقضاتك. ربما تكون أكثر تسامحاً من حَمَلَةِ تراثك. انظر كيف يتربع الكونغرس في آخر «المول» مثل سلطان تركي عتيق يتضخم مع مرور الزمن، وقد جلستُ بحضوره المتاحف مثل جواري تعرض جواهرها الطبيعية والمكتسبة. وتحت القبة ـ اللفة الشامخة، عشعشتْ دبابير برية، تئز دون انقطاع معتبرة أزيزها نقاشاً. هل ترى كما أرى

أن الأزيز ـ النقاش اقتراعً على ثوب العالم الثالث المصلوب مؤبداً دون دفن، خوف أن ينهض ويـزلـزل أسس الأنظمـة ؟ أشـك بـذلـك. دون إحراج أيضـاً، هـل ترى نصب جـورج واشنطن التذكاري كما أراه، عضواً يرتفع متوتراً في الهواء ؟

ونطل من نافذة أخرى على الشـارع السـادس عشر يفصل، بـدءاً من البيت الأبيض، بين السود والبيض. أراهمـا عـالمين لايلتقيـان إلاّ في الخطـابـات السيـاسيـة. كيف يلتقي الجـوع بالتخمة ؟ كيف يلتقي السيد بالعبد ؟ أو الضعيف بالقوي ؟ أو المسيطِر بـالمُسيطَر عليـه ؟ أو حضارة الفقر بحضارة الغنى ؟

ويتمدد في الأفق البنتاغن كسولاً مترهلاً محاطاً بمساحات شاسعة من مواقف السيـارات الملونـة. آه، يـا نورمن موريسون مَنْ مِنَ الأميركيين يـذكرك الآن ؟ هـل كنتَ مجنـونـاً كي تحرق نفسك أمام كاتدرائية الحرب وتواً تحت نافذة وزير الدفاع احتجاجاً ضد حرب أمريكـا في فييتنام ؟ ارتفع لهبُ جسدكَ إثنى عشر قدمـاً في الهواء ارتفـاع أصوات المسحوقين. لمـاذا أردت أن تحرق طفلتك معك؟ هل هذه هي طريقتك بـالاحتفـال بعيـد ميلادهـا الأول؟ لِمَنْ أردتَ أن تقدّمها قرباناً ؟ الآلهة ماتوا منذ زمن سحيق. هل هناك من يستحق القرابين في هذه الأيام؟ لقد وهبتَ ابنتك الحياة مرة أُخرى وبرهة غيّرتَ رأيكَ ورميتَهـا خـارج النـار لتحترق وحدك. حسناً فعلتَ ! مئات القصائـد كُتبتْ لهـا. هل يقترن الشعر بـاللّهب ؟ وتستمر الحرب سنوات بعد احتراقك المذهل. ما هو عدد الثواني التي أحسستَ فيها باحتراقك ؟ ما هي الآلام التي عشتَها في برهة واحدة من عمرك القصير ؟ أتباعُ الذي عُلّقَ على خشبة يعتبرون أنـه من الجنـون أن يضحّي الإنسـان بنفسـه من أجـل قضيـة كبرى. اسـمكَ يمـلأ سماء فييتنـام. هنـاك يمجّـدونـكَ بطلاً وشهيـداً. وهل يعقـل أن أميركـا لا تعرف اسمـك ؟ عرفَتْ أم لم تعرف، ليس موتك عبثاً. ستبقى خارج وعيها وبالرغم منـه. مـا أقسى أن تظل الشهـادة ضروريـة. إلى متى تظـل الشهـادة ضروريـة ؟ لمن نقـدّم أنفسنـا ؟ لمـاذا ؟ متى ؟ هـل من يستحـق احتراقنـا الأبدي ؟ أوافق يا ريتشارد فاغنر أن الآلهة وممثليهم على الأرض في هـذه الأيـام (وربمـا في مختلف العصور) خطاة وأن الإنسان هو الذي سينقذهم.

وتمدُّ حبيبتي حديثاً مع سائحة مضطربة، فيمـا أنـا مـأخوذ بـأسئلتي. أرادت المرأة أن تتحـدث عن نفسهـا، فـذَكَرتْ أنهـا ولـدتْ ونشـأتْ في «نـوكسفيـل، تنسي». وأحبتْ جبـال «السموكي»، ولكنها اضطرتْ أن تنتقل إلى نيويورك، فعاشتْ مـدة طويلـة وحيـدة مع كلبهـا،

وسط زحام الناس. وعندما ظهر سفاح راح يجول شوارع المدينة بحثاً عن ضحاياه من النساء الجميلات قررتْ أن ترحل إلى أوروبا، ولكنها لم تطل غيابها، فقد ظهر هناك سفاح من نوع آخر. وشعرت حقاً بارتياح لدى عودتها إلى أرض الوطن، غير أنها لم تتذكر اسماً واحداً يمكن أن تتصل به وتشاركه شعورها بالارتياح. ولما تعرضت للاغتصاب وسمع جيرانها صراخها فلم ينجدوها أو يهتموا بالاتصال بالشرطة، عادتْ جنوباً باتجاه جداول وجبال «السموكي»، قبل أن يغزوها سواح الشمال.

□ □ □

مَنَاخَات الحُزْن

لو أتيح لحبيبتي أن تتكلم، ربما كانتْ تخبر تلك السائحة عن الحياة الرتيبة التي نعيشها، ولكنها كانتْ ستؤكد أنها لا تعاني من الوحدة مطلقاً رغم الرحيل الدائم. منذ الطفولة رحلتْ مع أهلها من قرية عيثا الفخار في البقاع إلى بيروت، وسكنوا شقة كانت تطل على جبل صنين. كانت العائلة كبيرة، والأصدقاء عديدين. وفي صميم العلاقات والكفاح، كانت الأم سيدة قديرة طموحة تريد لأولادها مستقبلاً زاهراً. أبتْ أن يظل زوجها سائق سيارة، خصوصاً بعد أن تعرض لحادث ترك أثراً دائماً في رأسه، فشجعته أن يهاجر إلى أميركا. التحق بأهله وإخوته في «توليدو، أوهايو» وعاش هناك سبع سنوات قبل أن يتمكن من الحصول على الجنسية ويستدعي عائلته. عمل دهاناً وحارساً، وحنّ كثيراً إلى تلك الأيام التي كان يسوق فيها سيارته باعتزاز بين عيثا وزحلة ودمشق وبيروت، ويأخذ عائلته في نهانات الأسبوع إلى وادي العرايش ونبع الخريزات وبعلبك والهامة وبلودان وصيدنايا. في البلاد كان يشعر أنه سلطان نفسه، وأصبح في أميركا يشعر أنه نملة تجرجر حبة قمح كبيرة (وربما فارغة) وتخاف وطء الأقدام. ولكنه أدرك تماماً أن جميع أنهر العالم تصبّ في محيط أميركا، فاطمأن وحمد ربه لهذه النعمة الجديدة.

استقرت العائلة في ديترويت، حيث سكن أخوالها التجار. كان أحدهم غنياً، بخيلاً على نفسه وعلى الآخرين، وكان الآخر هرماً أعزب متديناً متوسط الحال، وكان أصغرهم قد توفي بعد أن رفضتْ عائلته أن تدخله المستشفى، بسبب معتقدات دينية راسخة. كافحت العائلة كفاحاً مريراً قبل أن تتمكن من العوم فوق سطح الفقر. تركت حبيبتي دون أن تكمل دراستها وعملتْ في مخزن لبيع الثياب النسائية، ثم محاسبة في مؤسسة للضمان الصحي، وأكمل الأخ الأكبر دراسته وتخرج مهندساً، وأحب الأخ الأصغر العمل إنما أحب البنات أكثر.

ولمـا رجعتْ حبيبتي إلى البلاد وتزوجنـا، رجع الأخ الأكبر وتـزوج هـو أيضـاً فتـاة جميلـة، كانتْ قد نزحتْ مع أهلها من قريـة دير ميمـاس في جنوب لبنـان. وعجّز الأخ الأصغر أهلـه، فقـد غرق في حب فتـاة أميركيـة كـاثوليكيـة أصرتْ، أو بـالاحرى أصرّ أهلهـا، أن يغيّر دينـه ويتزوج في كنيستها. ولما رفض حملها أهلها بعيـداً إلى الشمـال وهي تحمل جرحـاً ربمـا لن يراه أبداً.

حينئذ اجتمعت العائلة وقرّرت أن منصور يجب أن يعود إلى البلاد مع أمـه للبحث عن عروس. في الاجتماع قالت الأم : «أريد أن آخـذ منصور إلى البلاد وأزوّجـه». واعترض الأب أن الأحوال المادية لا تسمح، واقترحت حبيبتي أن يذهب وحـده ويختـار الفتـاة التي يريـد، وقال الأخ الأكبر إنه من الأفضل أن يتخرج ويجد عملاً قبل أن يتزوج.

وعـاد منصـور بصحبـة أمـه إلى البـلاد وأخـذ يبحث عن عروس، فيمـا يفكر بحبيبتـه الأمريكية. أرادهـا شبيهـة بحبيبتـه، وأرادتهـا الأم جميلـة وطويلـة وبيضـاء (لأن منصور قصير وأسمر) وبنت عائلة معروفة، ومتخرجة من الجامعة (كي تستطيع أن تعمل فيما يكمل العريس دراستـه). كثرت الاقتراحـات من مختلف الأقـارب والمعـارف، فتوالت الزيـارات والضيـافـات اليومية. وفي كل زيارة كان عليهما أن يتَنَاوَلاَ المشروب والقهوة وأحياناً غـداء أو عشـاء دسماً، فاضطربتْ معدة منصور أكثر مما اضطرب قلبه. بعد محاولات فاشلـة عـادا دون عروس ليجـد نفسه في فراغ قاتل ويفكر بصديقته التي رحلت شمالاً. في هذا الوقت ندم أنه لم يتزوج سعاد، وتذكر رحلتهما في السيارة الرمـاديـة بين البحر والأرز وصيـدا وزحلـة وبعلبـك. في الجبـال الخضراء كان يشعر أنه محمول على جناحي نسر يحوّم فوق أوديـة عميقـة كجروح قلبـه، وفي البقاع كان يشمّ رائحة البخور تتصاعد من هياكل قديمة، وعلى الساحل بسط وجهـه في وجـه الشمس وامتلأ صدره بالريح والرذاذ. تذكر نقاشهما حول أميركا فيما كـان أهلهـا يـدرسون أمـه أكثر مما كانوا يدرسونه هو. أتاح له ذلك بعض الحرية في علاقتـه مع سعـاد، وأوضح لهـا أنـه ليس من النوع الذي يتزوج دون حب أو يتوقع أن تكون عروسه جزيرة عـذراء غنيـة بـالمطر والأشجار والشمس، ولم يكتشفها أي إنسان قبله أو بعده. وتغير لونهـا لسبب مـا لم يتـأكـد مـا هو. ربما ظنت أنه يستدرجها.

نـدم أنـه لم يتزوج، ولكنـه من نـاحيـة أخرى يشعر بـالارتيـاح لأنـه لم يتسرع ويتزوج لمجرد أنه سافر ليتزوج. أدرك أن هناك خطأ ما، فقد وجـد نفسـه في جو غير طبيعي. يبحث عن عروس كما يبحث عن شقة يستأجرها. ليس هذا ما يريـده لنفسـه. أراد أن يكون زواجـه

عفوياً. أن يقع في الحب أولاً، لا أن يقع في الزواج فجأة ودون مقدمات ثم يحاول أن يخلق الحب خلقاً. رغم ذلك وافق أن تطلب أمه يدها من أهلها الذين وافقوا مشترطين أن يخطفها فيجنبهم إقامة عرس صاخب. ويضحك حين يتذكر لقاءهما في كرم العنب بحضور أمه وجدتها للتفاوض على تفاصيل عملية الخطيفة. وما إن وصل التفاوض إلى نقطة صعبة حتى ادرك خطورة ما يفعل فقرر جازماً أن ينسحب.

ووقع في الحب بعد أن عاد وتعرف إلى فتاة أميركية وتزوجها رغم عدم اقتناع أهله تماماً. ولكنه ما كاد يتزوج حتى قبلوا بالأمر الواقع. أصبحتْ أحوال العائلة جيدة وحرصتْ أن تتجنب أي تصرف يهدم الإنجازات العديدة التي حققوها خلال وقت قصير. أصبحت العائلة عائلات تملك بيوتاً وسيارات وموارد سخية. كافحوا كفاحاً مريراً، وفجأة وجدوا أنفسهم يدفعون ثمناً في عز الانتشاء.

أخذ أخوها الأكبر أباه وخالته وزوجته وابنته الصغيرة في رحلة إلى بوسطن، مروراً بشلالات «نيغارا». التقطوا صوراً للمياه المتدفقة تتساقط برهبة إلى قلب العالم. وفي اليوم التالي تابعوا رحلتهم إلى بوسطن. لم يصلوا. في امتدادات طريق «نيويورك ثرو» انفجرت عجلة السيارة، فحادتْ عن الطريق بسرعة جنونية واصطدمت بحائط جسر، وهمدتْ فجأة . قُتِل الأخ وزوجته وخالته تواً. مات الوالد في الطريق إلى المستشفى وانعطبتْ الإبنة الصغيرة مؤبداً ولا تزال في مؤسسة تعنى بالمعاقين، بعد أن عنيت بها جدتها سنوات. شرح لهم الطبيب عند حصول الحادث أن دماغ الفتاة أصبح مثل بيضة انكسرتْ واختلط صفارها ببياضها.

وكان بين أقسى جوانب المآساة الطريقة التي بلّغتْ بها الشرطة الأم الخبر. جاؤوا إلى البيت في ديترويت وكانت وحدها هي وطفل ابنها الذي أصبح يتيم الأب الأم قبل أن يبلغ خمسة عشر شهراً من عمره. أبلغوها الخبر باقتضاب ودون مقدمات، وتركوا بعد أن سألوها بشكل عابر إذا كانت تريد شيئاً. دون نحيب اتصلتْ بنا في آن اربور وأخبرتنا بالحادث إنما ذكرت بأن الجميع في المستشفى. غرقنا في هاجس الموت ونحن نقود السيارة بسرعة هائلة إلى بيت العائلة. هناك واجهنا الموت حاداً مثل نصل السيف.

وكان لابد من بداية جديدة، هل مَنْ يستطيع أن يضع الحزن وراءه وينطلق متحرراً من هموم الماضي ؟ الأم لا تتمكن. تعيش في سحابة داكنة ضمن بيتها. تقطن الغيمة الداكنة قلبَها وعينيها وجبهتها وثيابها. منصور لا يستطيع أيضاً. فجأة انقطعت كل العلاقات فحمل وحيداً مسؤوليات تتراكم باستمرار، وتواجهه في البيت متفرسة به وعند منعطفات الطرق وفي

الليل بعد أن تنام عروسه التي لم تعرف كيف تتعامل مع الوضع الجديد. أرادت أن ينسى عريسها ويستأنف معها حياتهما الماضية كأن شيئاً لم يحدث. تشرح له أن الموت هو نهاية الذين ماتوا وليس الذين ما يزالون أحياء. وأرادته أن يتابع معها الذهاب إلى البارات والمسارح والمطاعم. لا يستطيع. كيف يستطيع ؟ مع هذا حاول مرة. بكى في المطعم وسط زحمة الناس وهرب. اضطرت أن تترك عشاءها وتلتحق به. نَمَتْ الأزمة سنة بعد سنة وتعمّقتْ رغم أنه أصبح لهما أربعة أولاد. وأخيراً أعلنتْ فشل العلاقة، فتركتْ تبحث وحيدة عن حياة جديدة لم تجدها حتى الآن. ولا يزال هو يحمل مسؤوليات بحجم الماضي السحيق.

ووحّد الموت بيني وبين حبيبتي. وُلدت الوحدة بالفرح وتعمّقتْ بالحزن. خَبِرناها معاً وفي آنٍ. تعمّقنا في الحاضر، وسافرنا دون خوف في متاهات الماضي والمستقبل. ننطلق في مختلف الاتجاهات. نتأمّل العالم من أسفل ومن علو وفي وسط الازدحام، وداخل بطن الحوت أو في البحار والأجواء الشاسعة.

هكذا كانت البداية منذ مطلع الفتوة وهكذا نتوقع النهاية. كانت حبيبتي قد عادت إلى بيروت فالتقينا بعد فراق ستّ سنوات. تبادلنا أثناءها بعض الرسائل التي تحدّثنا فيها عن أمور عدة غير الأمر الأساسي الذي كنا نلمح إليه تلميحاً غامضاً، والذي طالما حاولنا أن نغلّفه بغيوم كثيفة، كتلك التي اخترقناها فوق المحيط.

في مطلع الفتوة دعاني صديقي فارس لإمضاء أسبوع معه في عيثا الفخار هرباً من حر بيروت، فلم أتردد. انطلقنا مثل عصفور فَلتَ من قفص. طرنا فوق الجبال، حلّقنا فوق سطح البقاع، انعطفنا عن الطريق المؤدية إلى بوابة دمشق العريقة مثل الهموم الإنسانية، تابعنا طريقاً ضيقة متعرجة في السفوح الغربية للجبال الشرقية، قطفنا عنباً عند بيادر العدس، ودخلنا وادياً تحيط به التلال العارية من جهات ثلاث. عيثا الفخار ليست الكفرون ولكن لها جمالها الخاص (أقول هذا لتسمع حبيبتي). أجمل ما فيها الهواء الجاف البارد والسماء الصافية والتمشي بين الكروم. ولأنني «كفروني» سألت عن الينابيع، فقال فارس إنّ هناك عيناً تقصدها الصبايا. تمشينا إليها عند الغروب فوجدنا سرباً رائعاً من الفتيات ينتظرن دورهن لملء الجرار. حوّمنا حولهن. مَن النحلة ومَن الزهرة ؟ من يبدأ الإغراء ؟ ولماذا وكيف ؟

ضاعت الحدود. لماذا التساؤل طالما أن للعبة مثل هذا التوهج الداخلي المتدفق ؟ آه يا حمامات ألف ليلة وليلة. كيف تحوّلت الفتيات الأسيرات إلى حمامات طارت دون توقف إلى بركة مياه صافية ؟ كيف عادت الحمامات فتيات جميلات تعرّينَ وسبحن مستخفات

بالعالم ؟ وهل أنتَ على هذا القدر من الحرمان يا قمر الزمان كي تراقبهن من وراء صخرة وراء شجرة وراء أكمة فتقرر أن تسرق ثياب إحداهن «وقبوعة الإخفاء» التي بها تتحول صاحبتها إلى حمامة تطير حرة وراء حدود الأسر ؟ لماذا تأخذها أسيرة إلى أمك وتتركها في غرفة دون نوافذ ؟ أعرف أنها ستبحث في ظلمة الدهاليز عن عشيق. ربما تقبض عليها، وربما ترجمها بالحجارة. لن تزداد حياتك ثراء بل فقراً أيها الطاغية الصغير.

وأطلت الفتاة التي أصبحت حبيبتي ورفيقة عمري وشريكتي في مغامرة الفرح والحزن. كانتْ مثل عنقود من العنب تدلى من شجرة عالية فوق نبع الشيخ حسن. لم أرد أن أقطف العنب. متعة هائلة أن أتأمل العنقود. لا أسر، لا سرقة، لا غرف دون نوافذ. الفضاء مَسْكَنُ الحلم. تملأ الجرة ماء، أمتلئ بها، فالتفتُ إلى فارس وقلت : هل في عيثا مثل هذا الجمال ؟

- أَعْجَبَتْكَ ؟

- بهرتني.

- نسهر عندهم الليلة. إخوتها أصدقائي.

- أصدقاؤك أصدقائي.

واتسع العالم ذلك المساء حتى أصبح بلا أسوار وحدود. سهرنا (مجموعة من الصبايا والشباب) على السطح، فتذكرت مواسم سلق القمح وجرش البرغل وإعداد الكشك ونصب المراجيح وغناء «الشومالك يا الشومالي» في الكفرون، وخرجنا تحت ضوء القمر إلى الكروم وبيادر المصاول. غنّت التي ستصبح حبيبتي «برهوم يا بو الجدايل» وأسمعتهم شعراً غزلياً، ودبكنا على دربكة فارس وغناء ليلى.

وتكررت اللقاءات مع التي ستصبح حبيبتي في عيثا ثم في بيروت. تجادلنا في السياسة والدين، فاعتبرتني متطرفاً واتهمتها بالوعي المزيف. استغربتُ فيما بعد (ويجب أن تكون قد استغربت هي أيضاً) الجرأة (أو ربما الوقاحة) التي تكلمتُ بها. بأية سلطة تكلّمتُ معها هكذا ؟ ترى بدأت أحبُّها ؟ المهم أن علاقتنا توثّقتْ، دونما حاجة إلى مكاشفة وتأكيد. وأثناء حديث ودّي خاص سمعتُ نفسي أقول دون أن أذكر ما الذي قادنا إلى ذلك : لو يتحول العالم إلى نهر.

لم أتوقع جواباً إيجابياً فاستغربتُ أنها قالت : ونتحول نحن إلى سمك.

- عندئذ نعيش داخل التيارات.

- وننزلق بحرية في مختلف الاتجاهات.

ـ هل تتغازل الأسماك.

ـ بالمناسبة لا أعرف السباحة. هل تعلّمني السباحة ؟

ـ ليس من عادتي ألا أستغل الفرص الجميلة.

وهاجرت حبيبتي مع أهلها إلى الولايات المتحدة دون أن تسنح الفرصة، وقبل أن نطوّر لغتنا الرمزية ونجيب عن تساؤلنا فيما إذا كانت الأسماك تتغازل. تبادلنا بعض الرسائل دون مكاشفة (سوى تلميحات هنا وهناك) ودون ارتباط بوعود. ولكنها عادت بعد سنوات فأُصِبْتُ بالفرح والذهول. سهرنا رأس السنة في مقهى نصر على الروشة، ودعوت صديقي أسعد فقد رتّبتَ له موعداً مع صديقة لا يزال يسألني حتى الآن لماذا أردتُ معاقبته بتلك القسوة. جرى قتال بين السكارى فحضرت الشرطة. اغتنم الكثيرون من الزبائن الفرصة فهربوا دون أن يدفعوا. لم نترك قبل أن ندفع، فأعدتُ النظر باعتقادي أنه ليس من عادتي ألاّ أستغل الفرص، خصوصاً وأنني لا أحب طبقة التجار، وكان بإمكاني أن أجد مسوغات مقنعة. ربما أردت أن أترك في ذهنها انطباعاً إيجابياً.

بعودة حبيبتي بعد سنوات تحوّل العالم إلى نهر وتحوّلنا نحن إلى أسماك ملونة. سبحنا بحرية في مختلف الاتجاهات والأعماق إلى أن التقطتنا فجأة شبكة وأخرجتنا من الماء، فكافحنا لفترة صغيرة قبل أن تلقينا في حوض الزواج. ربما دخلنا الشبكة تلقائياً. ومهما كان، فلا نزال نرى العالم نهراً. وما نزال نسبح بحرية في مختلف الاتجاهات إنما ضمن الحوض.

هاجرنا إلى الولايات المتحدة، وعشنا في آن آربور، حيث تابعتُ دراستي في جامعة ميشغن. اشتركنا في نشاطات حركة الحقوق المدنية للسود وحركة الاحتجاج ضد حرب أميركا في فييتنام. لن أنسى ذلك الصف الطويل من الطلاب الأميركيين أمام المكتبة ينتظرون دورهم للتبرع بالدم لإرساله إلى الثوار الفييتناميين عن طريق الجزائر. ولن أنسى أن عدداً من زملائي في الصف اشتركوا في تأسيس حركة طلابية من أجل مجتمع ديمقراطي. أين أنت الآن يا توم هيدن ؟ تزوجت النجمة السينمائية جين فوندا فكافحتَ منذ ذلك الوقت أن تصبح نجماً سياسياً. وقُتل مارتن لوثر كينغ فأصابتْ إحدى الرصاصات فكرة اللاعنف في الصميم، ودُفنتْ، فنمَتْ على قبرها فكرة القوة السوداء، ثم أُغتيلتْ بدورها. ما العمل إذا فشل اللاعنف والعنف ؟ الاستسلام ؟ لا يمكن. هل يشكّل قوس القزح حلاًّ ؟ مهما كان، الكفاح سيستمر.

يوم عدت إلى الوطن كتبتُ، «آه، ما أروع العودة والحوار وما أروع أن تتشابك الأيدي وتتلاصق الأكتاف وترتفع الأصوات بالغناء» :

«سننتصر
سننتصر
سننتصر يوماً ما
آه، عميقاً في قرارات نفسي أؤمن
أننا سننتصر يوماً ما»

ويوم اغتيل مارتن لوثر كينغ الذي قهر الخوف من الموت كتبتُ : «الذين تجاوزا العنف (سقراط، المسيح، غاندي، كنغ) لحق بهم العنف وصرعهم» ولكن قائداً آخر سينبت من جرحه ويتحدى، «إلى الجحيم بحياتي ... أعرف أنني سأموت.»

في أمريكا كنت أغني العتابا في الطريق إلى امتحاناتي، (أحياناً بصوت مسموع). كنت أغني (خاصة) :

جِمـــــالْ محملي وجراسْ بتعنْ	أيـــــامْ المضتْ علبـــالْ بتعنْ
حَمَلتْ بضـــاعتي ونــزلتْ أبيعنْ	غريبْ ومـــا حـــدا مني اشترى

وأمارس الوطن مع الآخرين بأكل الكبة والتبولة والحمص والفول وبرقص الدبكة.

تجوّلنا كثيراً على ضفاف نهر «هيورن» في مختلف المواسم. مشينا فوقه عندما كان يتجلد في الشتاء وقطفنا زهوره وأوراق العنب في الربيع. وخضناه في الصيف، وراقبنا طيوره ترحل جنوباً في الخريف. اصطدنا مع راشد الأسماك في البحيرة الفضية، وفي بحيرة «الرجل الهرم»، كما أسميناها في ذلك الحين لأن رجلاً عجوزاً كان يسكن على شاطئها.

وفي الأزمات كنا نحاول أن نُفهم الناس القضية الفلسطينية، إنما دون جدوى. أيتها الأبواب الموصدة في المنازل الديمقراطية، هل من الجهل أن نقرع حتى حين لا نتوقع جواباً. لماذا نقرع ؟ هل الألغام أجدى ؟ حاولنا الدبكة لنعرّف بتقاليدنا الشعبية عند سفح إبهامكِ يا «ميشغن» إنما أيضاً دون جدوى، وتفرقنا في متاهات العالم. انتهى زمن الاستقرار في بيروت يا خالد وشفيقه. أصبحتْ حياتنا معلّقة في سديم بين الضّباب والوهج والثّلج. ومحمد، وحيد أمّه، بقي في بيروت ولكنه طلّق مرتين وتزوج للمرة الثالثة وما يزال مستقبله أمامه (إذا ظلَّ حياً).

المَسِيحُ يدبك فِي ضَوءِ القَمَر ويَسْبَحُ عَارِياً

فيما عدا التساؤل الدائم حول أين نستقر، جرّبنا لفترة العيش في بوسطن ومارسنا الحياة طقوسياً تماماً كما كنا نفعل في بيروت وكما نفعل الآن في واشنطن : ننهض صباحاً، نشرب القهوة فيما نقرأ الجريدة (في بيروت كنا نجلس على شرفة شقتنا في الشويفات ونراقب صحراءها الخصبة)، نتناول الفطور، ونخرج للعمل أو لنتجول في شرايين المدينة دون دليل وهدف.

صعدنا مرة إلى برج «جون هانكوك» لنراقب بوسطن من فوق. صعدنا ربما إلى الطابق الستين وأشرفنا على نهر تشارلز، ومرفإ بوسطن، ومطار لوغن، وتلة بيكين، والجبال البيضاء البعيدة في نيو همشر، وجامعة هارفرد وغيرها.

وكأنما عرفتْ حبيبتي ماذا يجول في خاطري في تلك اللحظة فأخذتْ تقلّدني بسخرية، مما يدل أننا طوّرنا لغتنا الرمزية : رائع أن نشرف على المدينة من هذا العلو الشاهق. كفانا الغرق في الأجزاء والتفاصيل. رائع أيضاً، بل من الضروري، أن نراقب الشكل العام، أن نكتشف العلاقات بين الأشياء، وكيف تلتقي وتكوّن صورة مذهلة فتتحول إلى كائن جديد هو أبدع من الأجزاء وأهم. الحقيقة ليست العناصر منفردة بل العلاقات فيما بينها. طبعاً مثل هذا القول ينطبق على الأفراد والمجتمع. صحيح أن الفرد ليس شيئاً. هو ذروة الإدراك، ولكن المجتمع هو ذروة التكون وفيه فقط ينشأ الإدراك والعقل والنفس والشخص والله. حقيقة أن الله رمز المجتمع انطلاقاً من الأب. هو رمز الكل الذي يتفوق على الأجزاء.

وتتوقّف حبيبتي عن تقليدي وتكرار أفكاري لتسألني بلهجتها الخاصة : متى تنسى دراساتك الاجتماعية، وتتوقّف عن التّحليل وتكوّن نفسك ؟

ـ نفسي أنني محلل.

ـ والتمتع والعيش والعفوية يا غليظ ؟
ـ دائماً. دائماً يا مهضومة.
ـ انتبه ! أخذت المرأة بطريقك !
ـ لتنتبه هي !
وأنصرف عن هذه المقاطعة لأقلّد تقليدها لي : ما دمنا لا نستطيع التحرر من المكان، فلنحاول التحرر من الأسفل والتفاصيل والجزئيات. لنصعد إلى فوق. لنصعد بقدر ما يمكن ونطل على الأسفل فنشعر أننا نحلّق. هذا تماماً ما كنت أشعر به عندما أتسلق جبل السيدة أو عش الشوحة في الكفرون. هل تشعرين كأن قلبك ينخطف من صدرك عندما تطلين من مكان شاهق ؟ أنا أشعر كأنما تنمو لي جوانح فأحلّق مذهولاً. ينخطف قلبي وينطلق من عشه مثل طائر الحوم، يرتفع، يرفرف بجناحيه. حقاً اختبار رائع أن ينخطف الإنسان، أن تتكون له جوانح فيجوب أجواء رحبة رحبة.
تضع حبيبتي يدها على كتفي وتقول : لننزل. أخاف أن تطير.
ـ أحملكِ على جناحي.
ـ بلا أوهام. تعال ننزل.
ـ لم السرعة ؟ تذكرين عندما زرنا منير وحسني في شيكاغو ؟
ـ يومها أيضاً أصررتَ أن نصعد إلى بناية برودنشل ؟
ـ أذكر أنكِ أصررت أن نبقى هناك لوقت طويل ؟
ـ صحيح. كان الوقت ليلاً، وبدت الشوارع كأنها أنهر من الضوء. أنهر بيضاء توازيها أنهر برتقالية.
ـ منذ زمن لم نر حسني وصفية.
ـ حقاً.

□ □ □

وهبطنا مرة أخرى إلى قاع المدينة. تمسكتُ بيد حبيبتي حابكاً أصابعي بأصابعها وخرجنا نسير في الشوارع والحدائق. توجّهنا إلى «هارفرد سكوير» ومنه إلى منتزه عام قريب. كانت الموسيقى صاخبة والغناء احتجاجاً وصراخاً متوتراً ضد سلطة مهيمنة. كانت تلك الأيام في مطلع السبعينات ثورة الأزياء وأساليب العيش. هذه هي الثورة التي يجيدها المرفّهون. احتجاج مرفّه ضد نظام يؤمّن لهم الرفاهية. راقبتُ وأنا أشبك أصابعي بأصابع

حبيبتي عري الفتيات. انبطحتْ إحداهن على ظهرها تصغي للموسيقى الصاخبة، وتعرض أكثر ما يمكن من جسدها للشمس مكتفية بـ «شورت» ضيق وبصدرية محلولة مما يسمح للحلمتين بالخروج إلى الهواء الطلق. التقطتُ لها صورة مركّزاً العدسة على مغارة الزمرد والمرجان. يومها امتطيتُ زورقاً صغيراً ورحلت بعيداً في البحر بحثاً عن جزر المرجان.

وحولّتُ عدسة الكاميرا إلى صدر فتاة ترقص وحدها مغمضة عينيها غائبة كلياً عن العالم. ولمّا بدا أنني اهتممتُ بها أكثر مما يجب، علّقت حبيبتي : محشّشَة، لاشك.

ـ المهم أن صدرها جميل.

ـ أشبع نظرك.

لم يشبع نظري. على العكس ازداد إحساساً بجوعه القديم. أراقب أحد ثدييها يقفز خارج قميصها المفتوح مثل الكتب المقدسة. كان ينتفض كعصفور ملوّن اكتشف سر الطيران منذ برهة. حاول، بشيء من الوجل والاستهتار معاً، أن يطير في مختلف الاتجاهات. وضعتُ في كفي حبوباً نادرة وفتحتها علّه يغط على أصابعي وينقر ما شاء. وكان أن طال انتظاري دون جدوى فحوّلتُ نظري إلى شاب طويل نحيل تقمّص شخصية المسيح. مثله أطال شعره ولحيته وحمل عصىً معقلية تماماً كتلك التي كنتُ أحملها في الكفرون لأقطف الرمان والتين والجوز وعناقيد العِنب التي لا تصلها غير الطيور. ترى من أجل ذلك كان المسيح يحمل تلك العصى المعقلية ؟

ابتهجتُ لتساؤلي كما لو أنني اكتشفت فجأة حقيقة أزلية رغم اقتناعي بعدم وجود حقائق أزلية. ترى كنا في الكفرون ما نزال نعيش تلك الحياة ذاتها التي عاشها المسيح ؟ هل كان يسبح عارياً، ويجوب الحقول ويتسلق الجبال، ويختبئ وراء أغصان الدفلى والدلب يراقب البنات يسبحن ؟

ويتوجه الشاب الذي ينتحل في بوسطن شخصية المسيح، رغم المسافات الحضارية، لجماعة ممن تجمعوا حوله : أسألكم مَنْ هو نقيض المسيح في هذا العصر الهزيل. ستستغربون، وأفهم استغرابكم. ما أكثر مدّعي المسيحية في مجتمع يقوم على العنف ويمارسه في مختلف نشاطاته اليومية. ممارسة العنف متعة. حتى المتعة أصبحت عنفاً. الحب عنف. الرياضة عنف. الكتابة عنف. الجامعة عنف. الموسيقى عنف. ولكنني قصدت شخصياً شيئاً معيناً بسؤالي. قصدتُ بالأحرى دوراً معيناً. ليس التجار الذين طردهم من الهيكل نقيض

المسيح فحسب. ليس السياسيون الذين يمارسون القهر فحسب. ليس الرأسماليون الذين يجوّعون العالم كي يصابوا بالتخمة فحسب.

الذي يتكلم باسم المسيح هو نقيضه أيضاً. بصراحة، البابا نقيض المسيح. إنه ملك متوج. إنه ملك الملوك. تأملوا العربة الفخمة التي يحملونه فيها على الأكتاف. تأملوا المجوهرات والصولجان والحرس والحاشية. لا تنخدعوا بالوداعة. إنه حاكم مثل كل حاكم آخر. حوّلوا المؤمنين إلى رعية خاضعة.

قابلوا كل هذا بحياة المسيح. كان حافياً جائعاً مرسل الشعر ممزق الثياب. لم يكن يعاشر السياسيين والكهنة والتجار والمترفين. كان رفيق المعدمين والمرضى والمعذبين والفقراء يناقشهم في شؤون حياتهم. لم يسمح لهم بالسجود. كانوا يشمخون به. يتفتّحون مثل الأقحوان من الداخل. شجعهم على الاكتشاف والتحرر وليس على التمسك بالتقاليد وممارسة الطقوس. التقاليد خُلقتْ للإنسان وليس الإنسان للتقاليد. الإنسان هو الذي صنع التقاليد، فلماذا يتحول إلى صنيعة في هذا العصر التعس. الوعي المزيف يتسلط على العقل والروح والجسد. هل يمكن أن نجمع بين المؤسسة والثورة ؟ مَنْ نقيض مَنْ ؟ أقول لكم، كل شيء نقيض كل شيء آخر في هذا الزمن التعس. الدور نقيض الشخص، كما المؤسسة نقيضة الثورة. المؤسسة والدور الأكبر الذي يمثّلها يصر أن يبارك الفقراء ولكنه يرفض أن يتكون لهم وعي طبقي. هذه ليست لغة المسيح ! إنها لغة رجال الأعمال والرأسماليين والحكام. أقول لكم بصراحة كلية إن المسيحية تحوّلت من دين المنبوذين والضعفاء والفقراء والمرضى والمعدمين إلى دين النخبة والأقوياء والأغنياء والمتخمين. إنها مؤسسة مرتبطة بالمؤسسات الأخرى والنظام العام.

وكانت هناك مشاهد لا تقل طرافة فحوّلتُ عدسة الكاميرا من مسيح هذا العصر إلى شاب حمّر شفتيه ولبس حلقاً وعقداً وحذاء نسائياً، ثم إلى فتاة خطف صديقها صدريتها فطاردته دون أن تغطي ثدييها المترجرجين، ثم إلى جماعة كريشنا يدقون دفوفهم ويغنون ويرقصون ويجمعون التبرعات، ثم إلى كلب اندمج في حالة الصخب فيركض في مختلف الاتجاهات ويدور حول تمثال جورج واشنطن ليبول حيث شطب أحدهم الكتابة الأصلية وكتب بدلاً منها بخط شاحب : الديمقراطية اغتصاب.

وها نحن، حبيبتي وأنا، نشبك أصابعنا ونتجول في واشنطن بدلاً من بوسطن بعد حوالي خمس عشرة سنة. تغيّرت الأمور كثيراً. لا تزال المتعة سيدة القيم ويعود النجاح ملكاً متوجاً

يقيم نصباً تذكارياً للتنافس على أنقاض الصداقة. وتغيّرت الأزياء فالشباب في الوقت الحاضر أنيق يقرأ مجلات الإعلان الصقيلة، وطنيّ، غاضب على العالم الثالث فيتساءل من هذه الشعوب المتخلفة تتحدى أكبر قوة في التاريخ. تغيّرت الأزياء، ولكن الانشغال بها لم يتغير. الجوهر واحد أيتها الثقافة المضادة، وأنت أيتها الثقافة السائدة. كلاكما وجه للمتعة في مجتمع مرفّه.

لا أظن أن حبيبتي كانت تفكر بالأمور ذاتها. كان وجهها، عكس ما كان عليه وجهي، هادئاً كغيمة بيضاء فوق خليج دخل عميقاً في البر. ربما عادت تفكر بوضعنا. خرجنا إلى العالم الرحب كي ننسى. هل يمكن أن ننسى ؟ كيف تنسى أمي الحاضر وتذكر الماضي السحيق ؟ ما تزال تستدعي أقرب الناس إليها في الطفولة فتنادي أسماء من ماضيها السحيق وتدخل في حديث حقيقي معها. أتساءل أين حدود الواقع وحدود الوهم؟ كيف يتحول الوهم إلى واقع والواقع إلى وهم ؟ ما معنى أن تعيش في هذا العالم السّديمي ؟ بل أليس غريباً أن تعود من الوهم إلى الواقع وتنطق بوضوح كلّي ؟ نادتني مرات «خالي رشيد، يا خالي رشيد»، .فقلتُ لها «أنا ابنك ولست خالك»، فأوضحت «أنت خالي وأبي وأمي وأخي وأختي وابني وكل شيء يقربني».

اندهشتُ ولجأت إلى الصمت. هي أيضاً تصمت لبرهة ثم تتحدث لنفسها، «تركتني يا أسبر. نيالك متّ. أنا الله راقض يأخذ روحي. أعطوني سم لموت. ديروا بالكم على البنت. طعموها»

وأسألها مَنْ البنت. لا تجيب. أحاول أن أفهم. تتكلم حول أمور عديدة. وفجأة أدرك أنها تقصد نفسها. هي ابنتها التي فقدتها في الطفولة الأولى.

وتحوّلت عندما أعدناها إلى البيت. لم تكن تعرف أين هي عندما كانت في المستشفى، ولا تدرك أين هي الآن، إنما يجب أن تكون قد تحسّست تبدلاً في أوضاعها. سألتها أن تغني فلم تتردد. وبصوت خافت متقطع، حاولتْ أن تغنّي :

ثلاثي وأربعة وتنين تسعه

عاصديركْ دبيب النملْ يسعى

وينْ أهل المروّة اليومْ تسعى

يفكو لي الحديدْ مِنْ الرقابْ

كثيراً سمعتها تغني، ولكنني لم أسمع بيت العتابا هذا منها من قبل. المهم أن أم حليم مناضلة، وقد بدا لي في تلك البرهة أنها مرة أخرى ستتغلب على الموت. وترسّخ إحساسي هذا

عنـدمـا انتقلتْ من غنـاء العتـابا إلى لحن إيقـاعي تمـامـاً كمـا يفعل المغنون البـارعـون في الحفلات :

شوفْ الـزينْ عـادولابْ البيرى

خَـدْ الـزينْ يـاشلّـةْ حريري

وني لعـــاشركْ وأنتِ وصغيري

قبل مـا يصير بيزازك حـلابـا
سكابا يـا دموع العين سكـابـا

لم أصدّق مـا أسمع. أم حليم تعرف مثـل هـذا الشعر وتردّده ؟ غير ممكن ! أي عـالم يستيقظ في ذاكرتها المهددة بالانقراض ؟ أية مكبوتات هذه ؟
وتعـود إلى أجـواء الحـزن. تغنّي بيتـاً آخر من العتـابـا لم ألتقـط منـه إلاّ مقطعـاً صغيراً يقول :

حبـــــابْ الـــــدارْ وَينْ راجـــوا
شبيـــهْ الطيرْ لـــو قصّـوا جنـــاحـــو

أطلب أن تعيـــده. تحـــاول. لا تتمكن. تقـول «تعبت»، وتنـام. أتســاءل «هـل اليقظـة ممكنـة ؟ ترى تبصر في نـومهـا كـوابيس أم أحـلامـاً ؟ هـل يختلف النـوم عن اليقظـة في حياتها ؟»

طرحتُ عليهـا السؤال الأخير مراراً فقـد قلتُ لهـا مرّة إن كـلامهـا المضطرب خربشـة، فأجابتني، «بحكي مثل ما بشوف بنومي». لم أصدق مـا سمعت. تمنيت لو أن فرويـد سمع هـذا الكلام.

واستغرقتْ في نومها، فامتلكتني اليقظة. وجدتُ نفسي أجيب عن سؤال لم أجد له جواباً في السابق : متى تعلّمتُ الكتابة وبمن تـأثرت ؟ يجب أن أكون قـد تـأثرتُ بـكِ يـا أم حليم دون أن أعرف. يجب أن تكوني شاعرة كي تتمكني من القول في عالمك السـديمي، «مـا في عين تشبع شوف من عين». أنت شاعرة. أنت مناضلة. أنت حزينة ولست منحوسة كمـا ترددين دائماً. تترجين «دخيلك فكّني من التعب»، وتسألين الله «يارب ليش حاطط حطابي». اللـه لا

يجيبك فتغنين لنفسك :

جرى دمعي على خـــدي مِنْ الهمّ
ولا صـــايـغْ جلى قلبي من الهمْ
خَمّنتُ الصفــا غــالبُ على الهمْ
تـــاري الهمْ غــلاّب الصفــــا

يجب أن يكون هذا ما تشعرين به الآن ؟ ترى لو أنـك في حـالـة أخرى هل يمكن أن تعكسي البيت ويظل بيتاً من الشعر ؟ هل الشعر بيت أم عراء رحب ؟

طالما اعتبرتُ أبي طائرَ حوم ! هل أنتِ أيضاً طائر حوم ؟ وأنتَ يا طـائر الحوم، كيف ترى نفسك ؟ ما اللغـة التي تتكلمهـا مع نفسـك ومع الشجر والغيوم والمطر والمـاء ؟ هل من علاقة بين لغتك ولغة الماء ؟ وعندما تحلّق فوق الأرض ما علاقتـك بـالريح ومـاذا تراقب وعمّ تبحث ؟ هل تعتبر السمـاء خيمتـك ؟ هـل تقرأ أبجـديـة النجـوم ؟ هـل تقبـل أبي وأمي بين أسرابـكَ ؟ هل تقبلني أنا في المستقبل ؟ هـل تعيش طـويـلاً ؟ مـاذا تفعـل حين تعجـز عن الطيران ؟ هـل تختبر المـوت البطيء ؟ أخبرك أن أمي يطـول مـوتهـا البطيء. الطب لا يستطيع أن يشفيها ولا يتركها تموت بكرامة. تناديني من أعماق يـأسهـا، «دخيلـك فكّني من التعب.» كيف أستطيع أن أفكّها من التعب ؟ ترى ما يشغلني حقاً هو أن أفك نفسي من تعبي بها ؟ أشك بذلك. اليوم، اليوم بالذات سمعتُها تغني لوحدها ولنفسها :

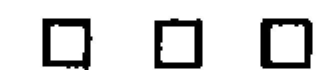
عتــابــا ويــاحــزيني مــا بليتي
بلي جسرْ الحـــديـــدْ ومــا بليتي

أعتذر منك يا طائر الحوم ! أشغلك بمشـاغلي. ولكن أريـد أن أخبرك شيئـاً آخر، شيئاً واحداً فقط، قبل أن أغيّر الموضوع. أمس لاحـظ أخي أن أمي يقوى جسـدهـا ويضعف عقلهـا فعلّق «هذا يعني أنهـا تحتـاج إلى عنـايـة أكثر فـأكثر»، وعقّبتُ على كلامـه بحسرة «ولوقت أطول». آسف سأغير الموضوع. أخبرك أن جارتنا في إحـدى ضواحي واشنطن وضعت ملصوقـة على سيارتها تقول «إذا كنت غنياً فأنا عزباء». وجدت بذلك منـاسبـة للكلام معهـا فقلت «أنا فقير، إذن أنت متزوجة». لا يبدو أنك تجد في كلامي أيـة طرافـة. أسمع شيئـاً آخر. أخبرك أن

أمي (آسف أن أعود إلى هذا الموضوع) كلما وجدتْ نفسها في مشكلة تردد مقطعاً من الصلاة. في هذه الأيام تعاني من الكتام فتبتهل عندما تدخل الحمام بصوت عال، «بشفاعة والـدة الالـه يا مُخلّص خلّصنا».

يـا طـائر الحوم، يبـدو أنـك غير قـادر على الضحـك ! لمـاذا ؟ هل خلتْ حيـاتـك من الطمأنينـة ؟ نحتـاجهـا بين وقت وآخر. منـذ فترة عبرتُ إلى شـاطئهـا. لسبب مـا قلتُ لأمي، «عفاك يا أم حليم ياشاطرة» فأجابتْ، «تقبر هكذا شطارة».

لو تبتسم قليـلاً، يـا طـائر الحـوم. أمس دخلتُ إلى غرفـة أمي ووجـدتهـا عـابسـة فقلت «شوبك عابسة ؟ وجهك مثل طير بو علي». هل تعرف ماذا كان جوابها ؟ سألتني «ليش أنت شفتْ طيز بو علي ؟».



أفْرَاحُ الحَمَامَة وَأَحْزَانُهَا أَيْضاً

يجب أن نكون قد اكتفينا بمراقبة عري المدينة. ألقينـا نظرة أخيرة على نهر «البتومـك» وهبطنا لنتابع تجولنا في مختلف أنحاء «المول». جلسنا قرب رجل هرم يطعم الحمـام. تقترب منه حمامـة بثقـة وتنقر قطع الخبز من كفـه، فـأسـأل حبيبتي : لمـاذا نسمّي نحن العرب عضو الطفل حمامة ؟

- غريب.
- حقيقة أريد أن أعرف.
- عدت إلى الهذيان.
- أعرف امرأة جميلة اسمها أفراح الحمامة.

تضحك بـانشراح وبصوت مسموع، فتتوقف قربنـا سيـدة أميركيـة وتقول بغضب : تكلموا بالإنكليزية، أنتم في أميركا.

تفاجأنا. فأطلقت عليها نظرة ساخرة. أشارت لي حبيبتي أن أتجاهلها قـائلـة، «لا تريـد أن تشرّفها بجواب».

تابعنا السير، ولكنني ظللت أفكر أنني كان يجب أن أقول لها شيئـاً يغيظهـا كـأن أقول لهـا مثلاً «حسبت أن في أميركـا حريـة» أو «أننـا نتكلم شعراً. والإنكليزيـة هي لغـة التجـارة» ولكنني تفهمت فقـد كـانت امرأة عجـوزاً. لم أتفهم في الـواقـع، فقـد وجـدت نفسي أبحث عن المرأة كي أواجهها. اختفت في زحمة النـاس. خطر لي أن العرب في بلادهم يتكلمون لغـات أجنبية باعتزاز. لماذا ؟ أذكر ملاحظتك يا محمود : نستهضم نحن العرب الأجنبي إذا ما حاول أن ينطق بالعربية ولو جاءت كلمـاتـه مشوهـة، ونحـاسب أنفسنـا بقسوة فنسخر من أحـدنـا إذا

اقترف خطأ صغيراً عندما يتكلم الإنكليزية أو الفرنسية. هذه ملاحظة دقيقة يا محمود. ترى لماذا ؟

التفتُّ إلى حبيبتي وقلت : عندي فكرة. ما رأيكِ لو نذهب إلى جبال «شننـدوه» ونبيت هناك الليلة ؟

ـ فكرة. ولكن عندي شغل بكره.

ـ بلا شغل بلا بطيخ.

ـ تريد أن تتسلق القمم وتنخطف ؟

ـ ونهبط إلى الشلالات إذا أردت.

وتوجهنا إلى السيارة دون تردد. ضاق الأفق وتغير شكل العالم. هذا ما شعرنا به حالما هبطنا نصب جورج واشنطن التذكاري. كان تعليق تلك السيدة إعلاناً بالهبوط. نخترق زحمة الناس. نخترق الفوضى وتخترقنا. ذرات صغيرة تتصادم في مساحات ضيقة.

ونجد أنفسنا في طريقنا إلى الشلالات الكبرى. يجب أن نكون قد حدنا عن الطريق إلى شنندوه دون وعي. رغم ذلك تابعنا، فقد تذكرت العاصفة المطرية التي حدثت أمس.لابد أن النهر في حالة اهتياج والشلالات في أوج غضبها وتدفقها. أرى شبهاً غريباً بين تدفق الشلالات وموسيقى بيتهوفن . من زمن لم أسمع السيمفونية التاسعة.

اقتربنا من شير شاهق الارتفاع وأطللنا على النهر. كان كما توقعنا في حالة غضب شديد. نتقدم من حافة الشير فتبحث يدي عن يد حبيبتي وتشتبك أصابعي بأصابعها. تسألني : خائف ؟

ـ أظن.

ـ تغيّر لونكَ ويبدو أنكَ ترتجف.

ـ بقدر ما أحب المرتفعات، بقدر ما أخافها.

ـ حسبتُ أنك تحب الطيران.

ـ صحيح.

وبدل أن أتراجع، وجدت نفسي أتقدم من الحافة وأطل على النهر. المياه تتدفق مثل آلاف النمور مزبدة، مجلجلة، مضطربة، مهددة. للسقوط دوي رهيب، والهواء مفعم بالرذاذ.

شيء ما في صدري ينخطف. أحسه بكل جوارحي. ينطلق مثل طائر الحوم. ها هو يرتفع، يضرب جناحيه في وجه السماء الواسعة، يخترق كثافات الغيوم البيضاء فوق الأطلسي

ويشرف عليها فتبدو له مثل نعاج ترعى في سهل الملوعة وأحياناً كغطاء قطني تلتحفه الأرض، يعبر كثافات الغيوم السوداء الممطرة فوق أوروبا، يغط على قمم جبال الألب متتبعاً خطوات هنيبعل، ينتشي بشمس المتوسط، ينتقل مع السندباد من جزيرة إلى جزيرة، يبحث عن يولسس الضائع، يريد أن يسدّد خطواته باتّجاه المرأة التي تنتظره، يستعيد موت سقراط فيهطل المطر فوق البحر، يقترب من شواطئ سوريا خاشعاً وجلاً يستنطق التاريخ السحيق كجروح الإنسان ويحسب حساب الصيادين، يتمهل فوق انطاكية الحزينة باحثاً عن آثار المكتبات والمعابد، يحلّق فوق مرتفعات كَسَب وصلنفة وقدموس ومصياف وجبل القصير، يتعمّق بتأمل وادي جهنم ويستغرب هذه التسمية مأخوذاً بجماله، يستدير متفقداً قلعة الحصن وبرج صافيتا، يشهق عندما يطل من «باب النقب» على وادي الكفرون فيغط مطمئناً مبهوراً .

أجلس على تينة «الضهر» فوق حاكورة فرح التي أسماها نجمة الصبح، وأستعيد طفولتي متحرراً من متاعب الحاضر. أجوب الأزقة والأحراج والبساتين والسواقي والجداول والأنهر حافياً. أتسلق الصخور والأشجار والتلال والجبال. أقطف الأثمار برهة نضوجها، وأرافق العصافير حتى أعشاشها، فأحنو خاصة فوق تلك البيوض المرقطة. ساعدتُ مرة عصفوراً في قتل أفعى اقتربتْ من العش لتأكل البيوض. أنشأتُ علاقة تنافسية إنما ودية مع ظلي. كنتُ أراقبه طويلاً رفيعاً في الصباح، ثم يبدأ بالتقلص كلما قربنا من الظهر عندما نعود سوية ونقيّل مع الماعز عند المخاضة، ثم نعود إلى الجبل عندما يبدأ بالتطاول حتى يبتعد عني كثيراً عند الغروب. في علاقتي مع ظلي أجد أنني أتحول تجاهه قزماً في الصباح والغروب وأشرف عليه عملاقاً عند الظهر وأطرده من حياتي ليلاً. أركض باتجاه الشمس حين أريده أن يطاردني. وبالاتجاه المعاكس عندما أفضّل أن أطارده. يهرب مني، وأهرب منه دون انفصال. وكثيراً ما أحيد فجأة يميناً أو يساراً أو أستدير حول نفسي أو أتقدّم أو أتراجع رغبة في تضليله ولكنه كان دائماً يقظاً مأخوذاً كلياً بأسرار اللعبة. ولأنني كنتُ مثله يقظاً مأخوذاً به، لا أذكر أنه تمكن أن يغلبني كما لم أتمكن أن أغلبه. المهم أن علاقتي به كانت عامرة بالنشوة مهما كانت النتيجة.

كنا نخترع لَعِبَنا ولم نكن نتلقاها في الأعياد مرتفعة الثمن متظاهرين بالمفاجأة. بين الألعاب التي اخترعناها أنا ورئيف أن نتنافس في مَن يبول أبعد من الآخر، وأن نتفنن في سرقة الجوز والعنب والرمان وأن نحوّل المياه عن مجاريها دون أن يلقطنا الناطور الذي كنا نسميه الشوباصي. آه منك يا عمي ميغال ! كنت تراقبنا عندما عيّنوك شوباصياً من خيمة الغار

على سطح بيتكم. لن أنسى عندما سرقنا رمانات غالي (لا أتكلم رمزياً هنا) فانتظرتنا في الساروود وراء بيت دعاس. وجدنا أنفسنا أمامك وجهاً لوجه فلم نتمكن من الهرب. طلبتَ أن نفرشخ إلى أقصى ما يمكن حتى كدنا ننفسخ، وضربتنا بقضيب الرمان على سيقاننا. لا أزال أشعر بلسع قضيب الرمان على ساقيّ حتى اليوم. لا أفهم الآن كيف كنا نستجيب بسهولة لطلبات الأستاذ جميل والأُستاذ عبد الله أن نذهب للبستان ونقطع لهما قضبان الرمان ليعاقبونا. كنا نختار أفضل القضبان. كيف أصبحنا جزءاً من عملية قصاصنا ؟ وبالمناسبة من أعطاك هذا الاسم يا عمي ميغال ؟ متى هاجر والدك إلى كوبا ؟ متى بدأت الهجرات ؟ آه من الهجرات. لماذا كنت قاسياً ؟ لم يشفع لي أنني كنتُ صديق ابنك لطيف. لا أزال أذكر بوضوح كلّي موت ابنك رفعت باكراً في مطلع الطفولة. هل كان سيكون مثلك رفيعاً قاسياً مثل الصوان عند نبع الشير. يوم ضربتنا لم أجرؤ أن أقول لك لماذا لا تؤدّب ابنتك لطيفة التي تجتمع مع حنا الندره سراً، كما تؤدبنا. كنتُ أحب حنا ولطيفة ولا أريدك أن تعرف. ثم ما نفع المواجهة معك ؟ عندما كان بعضهم يذكّرون بذنوب أولادك كنتَ تقول باستخفاف «نحن عائلة لا يناسبها الشرف» فيضحكون مسحورين بأسرار الغوايات. إن أولادك بين أهضم الأولاد. أفكر دائماً بلطيفة وحنا. أفهم أنهم نزحوا إلى بيروت ولكن لا أفهم ماذا أخذهم لأستراليا. لطيف يعيش في المانيا، وسلوى في ألباسو، تكساس. لماذا هذا التشتت ؟

وأنت يا (...) ! لن أذكر إسمكَ أو ألمح إليه كي لا يعرف أهل الضيعة. لماذا كنت قاسياً أيضاً ؟ والآن وقد متّ ودُفنتَ عميقاً في التراب وتحوّلتَ إلى عظام منخورة أقول لك إنني قطفتُ مشمشتيّ إبنتك قبل أن تصبحا رمانتين. أطمئنكَ أنني لم آكل رمانتيهما عندما كَبُرَتْ. الله يستر عليها وعليكَ وعليّ. أخبرك هذا السر الآن لكي أهز عظامك المنخورة في القبر لكثرة ما كنت قاسياً علينا. ما الخطأ في أكل المشمش يا ... ؟ أعشقها في بدايات البزوغ. ما أطيب الحصرم مع الملح ! أعتذر منكَ. أليس من اللؤم أن أتكلم لغة الانتقام ! في الواقع إنني لا أفضح هذا السر لهذا السبب. قد لا تفهم إذا قلتُ لكَ إن الكتابة عندي اعتراف بأسرار مكبوتة.

وأنتَ أيضاً يا فؤاد لماذا كنتَ شرساً في صغرك ؟ في طريقي إلى بيت بدرا كنت أخاف شيئين : أنتَ وكلاب بيت الشيخ علي. سمعتُ ولست متأكداً من هذا الخبر أنك كنتَ تطلع إلى جبل السيدة وتراشق الله بالحجارة. لا أدري إذا كنتَ أنتَ الذي فعل هذا أم ميغال أم ميكادو. أظنكَ أنتَ، فعندما تحوّلتَ من طفل شرس إلى شاعر رقيق، ظلّتْ كلماتك تتفجر

غضباً أحياناً فقلت مرة : «فيا ثورتي أزيحي إلهاً كهذا الإله». أعرف أنك شديد الكبرياء ولن تطلب العفو عندما تكبر وتقترب من الموت. ربما تظن أنك لن تموت لأنك تكتب شعراً. أخبرك أنني عندما التقيت ميكادو مؤخراً سألته إذا كان لا يزال يمشي بسرعة كما نعرف عنه فقال لي «لا أزال أمشي وأركض وأطير». ولما ذكّرته بتلك الأيام التي كان يحمل فيها سلتين، واحدة مليئة ببضائع استوردها من طرابلس والأخرى بالبيض، وبأنني اشتريت منه مرة قلماً ببيضة، ضحك من أعماق قلبه وطالبني بمزيد من البيض لأن ذلك القلم هو الذي علّمني سر الكتابة.

تذكّرناك كثيراً يا فؤاد عندما زارنا أبو صفا مؤخراً في واشنطن. عجبت كم تتشابه ذكرياتنا رغم فارق العمر بيننا. أبو صفا لا يجد في الأمر غرابة. قال إن ذكرياتنا واحدة لأن الأجواء التي عشناها واحدة. المياه الرقراقة نفسها، المحيط نفسه، الهواء نفسه ،العصافير نفسها، أشجار الرمان والصفصاف والدلب والسنديان نفسها، الطرق والتلال والأودية والصخور نفسها، والناس هم هم جيل بعد جيل. جيله السابق لجيلنا كان أكثر شقاء ولكنه كان يفرح بالأشياء الصغيرة التي كنا نفرح بها. حدثني، كما لو أن الماضي كتاب في راحتيه، كيف كان يذهب إلى المخاضة وينام تحت سنديانات الشيخ عبد الله ويسرق تينة أم طنسي ويصطاد العصافير تحت القرطمة ويلعب الحاح والدقس والسمركة ويعب الماء من عين فرشلو. وتحدث أيضاً عن اللحم المشوي في الأعياد وعن البطيخ ولعب السيف والترس والجريد على ظهر خيول تكبح كبحاً وصيد السمك بالقوس والنشاب وسرقة الرمان والعرانيس والجوز. وكأنما فجأة بدأ ينظر إلى الماضي من زاوية الحاضر، علّق أن هذه الأمور تبدو صغيرة خاصة للذين لم يختبروها ولكنها كانت وما تزال تستثير مخيلاتنا فتنطلق وراء أبعد الحدود المألوفة وتوقظ في أعماقنا آلاف الأحاسيس. وأضاف دون شعور بالمبالغة « صدّقني أن الصحة الجيدة التي أتمتع بها في هذه الأيام وأنا في الواحدة والسبعين تعود إلى تلك الأيام. لا شك عندي بذلك. يجب أن يكون لها علاقة بالهواء الطلق والبرغل بلوبة».

ويضحك أبو صفا من أعماقه، ثم يهدأ وتتلبد في وجهه غيوم كثيفة فأدركُ أن ذكريات أليمة يجب أن تكون قد استيقظت في نفسه. وكان ما توقعته، فقد أوضح أن جيلنا أكثر حظاً من جيله. في طفولته سمع حكايات الناس الذين ماتوا جوعاً ولم يجدوا من يدفنهم سوى خليل عبود الذي كان يحملهم على ظهره ويرميهم في هوة عميقة فتتراكم هياكلهم العظمية

مثل كومة من الحطب اليابس، وحكايات الرجال الذين أخذهم الأتراك للعسكر فعاد بعضهم ليجد أن الجراد أكل الأخضر واليابس وحصد الموت زوجاتهم فهام أطفالهم على وجوههم.

ويستدرك نفسه فيعود تواً لأجواء الفرح. «رغم ذلك» يشدد بثقة، «كان جيلنا أكثر سعادة من جيل أولادنا المنعّمين. غريب أمر السعادة رغم القلة، والتعاسة رغم الكثرة.»

ويتوقف عن الكلام موضحاً أنه لا يعرف ماذا يخبرني لكثرة ما تتلاحق الصور في ذهنه. أخبرني قصة حبه الطفولي لغريبة وبكائه المر حين تزوّجت ومرت عروساً على حصان أمام بيته، وقصص سابا وجميل الفرح وابراهيم الأسعد والشيخ ابراهيم الحسين. عن هذا الأخير أخبرني أنه كان كريماً إلى أقصى الحدود فكانت زوجته تصر على استضافة الناس الذين يمرون أمام بيتهم، وأنه، أبو صفا، مؤخراً قصد ابنه محمود بمهمة فرفض أن يلبّي طلبه قبل أن يأكل معه صحناً من المتبّلة.

آخ، ما أطيب المتبّلة يا عمي أبو صفا. صحيح جداً أننا نفرح بأشياء صغيرة ونراها كبيرة جداً جداً. قد يرى الآخرون النهر عندنا جدولاً ولكننا نراه نهراً، وقد يرون جبالنا تلالاً ولكننا نراها جبالاً شامخة تكاد تلمس السماء. هل من المبالغة أن ابنك الطبيب صفا عالج مريضاً عدة أيام في واشنطن ولم يأخذ منه فلوساً لأنه عرف أن الرجل أصله من برشين وبرشين ليست بعيدة عن الكفرون ؟ ثم تقول إنك لم تعرف متى بدأت تسبح. إنك لا تبالغ. أنا أيضاً لا أعرف متى. كأنما ولدنا في الماء مثل الأسماك. وهل من الغريب أن صديقنا سعيد الذي تقاعد مؤخراً وأصبح مولعاً باصطياد السمك، هل من الغريب أن تتغلب عليه في فترات الطمأنينة ذكريات الكفرون فيستيقظ في نفسه الشعر الذي هجره منذ زمن طويل ؟ يردّد لي أنه يعرف الكفرون أكثر منا جميعاً فقد عاش فيها طفولته وفتوته ويتحسر كأم خسرت ابنها في طفولته اليافعة أنه هجر وانغمس في تفاصيل المعيشة في عالم شديد البرودة. ويسمعني قصيدة (وكاد يغنيها) كتبها سنة 1942 بعد لقاء مع حبيبته عند نبع الشيخ حسن :

يا حبيبي غمر الصبح الجنانا	وانثنى يبحث عنا فرآنا
ووشى النبع بأسرار لقانا	للشحارير فغنّتْ بهوانا
هوذا «الشيخ» ينادينا إليه	جاعلاً من بردتيه - رضى الله عليه -
ملجأ كالقدس ستراً وأمانا	يزرع الكتمان في ظل خطانا

ويتوقف سعيد عن غناء شعره كي لا يسترسل في حسرته ويفقد سيطرته على أحاسيس اعتاد أن يلجمها. يدرك في قرارة نفسه أن العالم المتحضر سلبه نعمة الشعر، ولكنه يحمّل نفسه المسؤولية. يكتب حسرته وربما غضبه (لا أدري) ويغنّي مقطعاً آخر من قصيدته القديمة :

فبكى النبـــع غرامـــا وانتشى الليـل ونـــامـــا
فـافترشنـا سـاعـدينـا وهمـــزنــا شفتينـــا
وبعثنا قبلتينا
فصحـا الصبـح وقــامـا يقرئ الشيـخ الســلامـا
ويـأعطـاف النــدامى نَسَمٌ مَرّ وهـــامـــا
يتحـــدى شفتينـــا وينـــدّي وَجْنتينـــا
باعثاً بالعطر منا وإلينا
قم حبيبي لنسارع بخطـانـا فضـح الصبـح هـــوانـــا

هل غريب أن يجتاح الشعر عالم صديقنا سعيد جبرين وهو يصطاد السمك عند شلالات نهر البوتمك فيغني دون أن نسمعه مقطعاً من قصيدة جديدة كتبها سنة 1986 واصلاً إياها بقصيدته القديمة ؟

إليـــكَ يـــا ليـــلُ عني خـيّـبـتَ فـي الـحـب ظـنـي
مـــــا جئتَ تطلب مني ضيّعتَــــــــــه من سنين

ما أكثر الأشياء التي أضعناها يا سعيد. لذا أتمسك بذكريات الطفولة. أستحضرها مثل ثمرات المشمش والرمان في بدايتها.

أركض في ساقية الطاحون كمهر، وأسبح في غبابيط النهر تحت الدلب مثل السمك أو الضفدع، وعارياً أسبح مع زكي وصبري ورامز وبديع وبدري وحسني في غبيط الحومة. ثم أرتدي ثيابي مبللة وأزور حسن ومحمود وعبد اللطيف. فوجئت مرة أن حسن تسلق السلم والتقط حماماً من طاقة فوق عتبة بيتهم وذبحها وشواها وأطعمنا إياها دون أن يستشير أمه. مازلت أشعر بالذنب حتى الآن يا حسن فقد تسببتُ في ذبح حمامات وديعة ولكنني أدركت

أن عملك كان تعبيراً عن كرمك. هل تعرف ماذا حدث بعد تلك الوليمة ؟ نزلتُ إلى نبع الشيخ حسن ووجدتُ عنقوداً من العنب في النهر فقضيت عليه. وقد عرفتُ فيما بعد يا حسن أن أختك تركته يبرد في مياه النبع لضيف عزيز تنتظرونه.

أركض في النهر وأخبُّ فيه مثل حصان جموح متكبر تحرّر من سرجه ولجامه. المياه تنرش عن يميني وشمالي، ويتطاير بعضها إلى وجهي وصدري وكتفي. المياه، المياه، المياه. كانت الأرض في البدء مياهاً. ستعود الأرض مياهاً. أبدأ معها حيث تنفجر ينابيع، وأتدفق شلالات تجاه الأودية العميقة. أسيل معها في السهول، وأتسرب إلى جوف الأرض ومسام النباتات. وأتبخر فأسافر غيوماً بيضاء داكنة، وأُحدث برقاً وصواعق، وأهطل مطراً، (آه يا مطر، يا سرَّ الخصب والولادة). تمتصني الأرض العطشى حتى ترتوي ثم أتفجر نبعاً بين الصخور مثل نبع الشيخ حسن (أيها الشاعر الرقيق، يا شاعر الآلام يا شيخ حسن)، أو مثل نبع الشير (إنك ملجأ البواشق يا شير يعصى على التسلق)، أو مثل نبع كَرْكَر الذي شرب منه نسيم مسوح فأصبح شاعراً شعبياً وسمّي نفسه نسيم النبع.

هبطتُ النهر قافزاً من صخرة إلى أخرى. تسلقتُ الدلب المنحني فوق المياه، وطاردتُ السمك وقطفتُ حبوب الديس أو العليق السوداء فاصطبغت أصابعي بدمي ودمها. اختبأت في دلبة كثيفة وراقبت جماعة من الفتيات يسبحن. لا يسبحن عاريات كما نفعل نحن الصّبيان، ولكن ما أن تتبلل ثيابهن حتى تبزغ خيرات الأرض مغلّفةً بضباب شفاف. آه، ما أجمل غموض الجسد !

عندما وصلتُ غبيط المخاضة ذلك اليوم، وجدت جماعة من أصدقائي يسبحون فنزعتُ عني ثيابي وتباريت معهم في الغطس، ولما مرت بعض الفتيات عند معبر «المخاضة» لم نستر حماماتنا الوديعة. على العكس، أدرناها غرباً باتجاههن فصرخت أم إحداهن وكانت تحمل على رأسها رزمة من قصب الذرة : «يقلعكم أنتم وحماماتكم، انضبوا يا زعران». لو تعرف علاقتي بابنتها لقلعتْ حمامتي من شروشها. قبل ذلك بأسبوع، كنت أسير معها في بساتين الغرب ونتحدث عن فضيحة غامضة أحدثت اضطراباً في الضيعة. ضبط رجل ابنته تنام مع فتى في خيمة الغار، فأشبعها قتلاً. سألتني الفتاة الجميلة المهضومة التي كنت أسير معها وحيدين في بساتين الغرب عن الفضيحة وماذا يمكن أن يكون الفتى والفتاة قد فعلا. ولما كان الوقت ظهراً والبساتين فارغة وكنتُ أفضّل، على ما يبدو، التطبيق العملي على الشرح النظري، تسللتُ أنا والفتاة الجميلة بين قصبات الذرة الطويلة الكثيفة ومثّلنا الأدوار

المطلوبة. لم نكرر اللعبة فيما بعد رغم إلحاحي، فقد خافتْ حقاً. أصبح كل منا يتجاهل الآخر حين نلتقي مصادفة. ربما اكتشفتْ أن الحمامة لم تكن بريئة حتى في ذلك العمر. ترى تذكرين حتى اليوم كما أذكر بوضوح ؟ أتصور أنني سأخجل إذا ما لقيتك مصادفة في هذه الأيام. هل سيحمّر وجهك قليلاً ؟ الله يستر على الجميع يا صديقتي الصغيرة. ترى تغضبين إذا ما ضبطتِ ابنتك التي تشبهك كثيراً تلعب اللعبة ذاتها ؟ ليس عندي بنت كي أعرف كيف يمكن أن أتصرف. آه، للمناسبة، أُطمئنكِ أنني لم أذكر اسمك لأحد مع أنني أضبط نفسي أحياناً أفاخر بتلك المغامرة الجميلة العذبة مثلك يا حلماً من الماضي السحيق. لم أصارحك من قبل بأننا كثيراً ما التقينا في الأحلام وجدّدنا اللعبة بأشكال وأجواء ومواقع شديدة الاختلاف مستفيداً من القراءات والخبرات التي اكتسبتها فيما بعد. حلمتُ مرة أننا تغازلنا فوق شجرة، ومرة أخرى تحت الماء وقد استغربتُ أن يكون لنا مثل هذا النفس الطويل. وطالما حاولتُ أن أكبت حلماً آخر. أشبعونا في المدرسة دروساً دينية، فزرتني مرة في الحلم بشكل ملاك. كان لك جوانح غريبة الألوان فلعبنا اللعبة على الأرض وفوق الأشجار وداخل غيمة، ثم نمتُ هانئاً في ظل جناحيك الملائكيين. وتحوّلنا إلى مياه رقراقة تلتقي وتنفصل، تلتقي وتنفصل في ظلال الصفصاف والدلب والغيمة البيضاء التي تتمرأى في النهر.

إسمعي، أريد أن اعترف وأعتذر. التقيت مرة بك فعلاً في سيارة بعد عشرين سنة ولم أتكلم معك. كم خاب أملي وحزنت. ركبتُ يومها سيارة من طرابلس إلى صافيتا وكنتِ أنتِ تجلسين قرب السائق ومعكِ ولدان صغيران. سألكِ السائق عن أهلكِ وإخوتكِ فعرفتُ أنكِ أنتِ. كم تغيّرتِ يا صديقة الطفولة. سمنتِ كثيراً، ترهّلتِ، شاب شعرك. حزنتُ. كيف يمكن أن يحدث هذا وأنتِ لا تزالين شابة ؟ تُرى زوّجوك رجلاً كبيراً رغم إرادتكِ فأهملت نفسكِ إلى هذا الحد ؟ لماذا ترى المرأة أن حياتها الخاصة تنتهي حالما تتزوج وتبدأ حياة العائلة ؟ لا أقول إنك على خطإ. أتساءل فحسب. ربّما لم يكن أمامكِ أي خيار آخر. خفتُ أن أذكّركِ بنفسي فتمّحي المسافة بين الحلم والواقع. امّحتْ المسافة في مخيلتي منذ ذلك اللقاء، فلم أعد أحلم. انتهت اللعبة إلى الأبد. بدأ هذا الإحساس الملح بمأساة شيخوخة المرأة في الصبا. يخطر لي أحياناً أنكِ عرفتني ولكنك تجاهلتِ للسبب نفسه. أظن أنني أقل حظاً من أخي الذي لم يقع نظره على صديقة طفولته منذ رشاها بعلكة، فدخلت معه إلى خيمة الغار وكشفت له عن بضائعها الجملية كصباح صيفي في الكفرون. لو تعود الأيام الماضية ونذهب إلى البساتين قبل أن تطلع الشمس ونقطف التين والعنب والرمان وأقراص البندورة الحمراء.

بعد أن سبحنا في غبيط المخاضة وسمحنا للحمامات أن تطير غرباً باتجاه الفتيات الصغيرات، لبستُ ثيابي وتوجهتُ نحو المطحنة. كان حجر الرحى يدور بسرعة مجنونة، فراقبتُ بشغف حبات القمح السمراء تتساقط بانتظام إلى مصيرها المحتوم فتتحول طحيناً ناصع البياض. ولما أزعجني الضجيج الهائل وأدركت أن الحوار داخل المطحنة مثل حوار الطرشان حقاً، خرجت لأقف أمام قنطرتها القديمة فوق غبيط الجعفورة. كانت المياه تنرش مزبدة وتنقذف كمجموعة من النمور الجائعة. أقتربُ منها دون أن أنزع ثيابي. أترددُ قليلاً، ثم أندفعُ فجأة إلى وسطها وأتلقى زخمها وجهاً لوجه. أضحكُ بنشوة مصرّاً على عدم الانسحاب، وتضيع كلماتي في هدير المياه. ترتفع أكثر فأكثر ولكنها لا تطفو فوق الهدير. أنفصل عن المياه المنرشة كنمور جائعة، ثم أقتحمها مرة ثانية. أقترب إلى داخل القنطرة، غير أن المياه الشرسة تقذفني هذه المرة فأسقط وتدفعني إلى الغبيط. أفرح فأنزع ثيابي وأنشرها على شجرة الدلب. أتمدد عارياً على صخرة الكدان في وجه الشمس. دمي يسيل. أستسلم لشعاع الشمس. أستسلم مغمضاً عينيّ. يظل النهار متوهجاً. أنصهر بالنور والأشجار والغيوم البيضاء القليلة والشمس والسماء وهدير المياه الذي لا ينقطع. المواسم جيدة والطاحون لا تتوقف. تأتي الحمير من القرى محملة بالقمح وتعود محملة بالطحين. أستعيد كياني وأقاوم الانصهار. أود أن أظل مستسلماً مأخوذاً. ليس من أزمة. لِمَ أحس بالجوع يتسرب إلي من الداخل ؟ كيف بدأ يتسرب بهذه السرعة ؟ متى هضمتُ وليمة الحمام والعنب وحب الديس؟ أنسى أسئلتي. مثل المياه أتدفقُ إلى المصب بحرية ونشوة. أعبر الأودية الملتوية. ليس من مصبّ نهائي. رحيل أبدي ! ما أجمل الرحيل الأبدي دون بداية ودون نهاية. أظن أنكَ تشاطرني هذا الإحساس يا طائر الحوم ! هل نحن أسرى عادتنا السرمدية ؟

وقبل أن تجف ثيابي، أرتديها وأنطلق إلى البساتين حيث أتوقع لقاء فهيم وسليم وجمال ونايف وجهاد. نقطف أكواز الذرة، ثم نلملم أغصان الأشجار اليابسة ونكوّمها. أنزع لب شجر التوت الجاف من بستان إلياس الأخرس، ثم أذهب وأستعير منه صوانة وفتيلة كي نشعل النار ونشوي العرانيس. لُقّب إلياس بالأخرس لأنه لا يتكلم ولا يسمع منذ الطفولة. كان حادّ الذكاء ولا يجد صعوبة كبرى في التفاهم مع أهل الضيعة. الكلام الذي يصعب تحريه من الإشارات وحركات الشفاه تكتبه الأصابع في الهواء. تعلم أن يكتب ويقرأ في الهواء. يقول لي بفمه أحياناً وبأصابعه أحياناً أخرى : لماذا لا أراك ؟ بستاننا بستانكم. عناقيد الدالية كالذهب في وجه الشمس. تسلق الدالية، أقطف عنباً، وكل قدر ما تستطيع. خذ أيضاً سلة إلى البيت.

كان المرحوم أبوك صديقي. صح اختلفنا مرة بسبب خالي. أعرف أنه كان قوياً وجريئاً، ولكنني كنت أعتقد أنني أيضاً قوي وجريء. تواجهنا هنا عند قاطع الساقية، ولا أنكر أنه رماني بسرعة. كنت أقوى منه بالكباش. هو لا يكابش. كان جريئاً وسريعاً أكثر منه قوياً. لا يخاف أبداً. لا يتردد. ولكنه لا يعتدي على أحد. إن أحداً غيره لم يتغلب عليّ. كان معتدل الطول رفيعاً. كان جباراً وكريماً ومحبوباً من الجميع. في الأفراح كان يلبس جزمته ويلفّ زناره العريض حول خصره ويعقد عقاله وكوفيته بطريقة خاصة ويلف محرمته ويدبك في الطليعة. كان حقاً محبوباً.

ـ وأنتَ أيضاً يا عمي إلياس.

ـ شكراً. لذلك تصالحنا حالاً. بل منذ تلك المواجهة بدأتْ صداقتنا الحقيقية، مع الأسف لم تستمر طويلاً. توفي بعد ذلك بوقت قصير. لا أحد يصدق أنه مات، وبهذه السرعة. الموت في الشباب قاس كالصوان. آه، نسيت أن أعطيك الصوانة والفتيلة.

أريد أن تعرف يا إلياس الأخرس أنني أذكرك وأنا أراقب شلالاتْ نهر البوتمك ونفسي من حافة شير شاهق. سمعتُ بأنك تزوجت وأنجبت أولاداً، وعرفتُ أخيراً بالمأساة التي أصابتك. يؤسفني أنني لم أتمكن من تعزيتك شخصياً. تعرف أنني حتى الآن لا أعرف كيف أقدّم التعازي وكيف أستقر : أعيش بعيداً منفياً وبلا جذور. لا. لا. النفي لا يعني أنني بلا جذور. عميقة، عميقة مهما حلّقتْ غصون شجرة حياتي وابتعدت. أظن أنني سأراك قريباً. وحين نلتقي لن نتكلم عن مأساتك ومأساتي. طالما الحب موجود نتجاوز المأساة مهما كبرت.

بعد أن تفجّرتْ في نفسي هذه الذكريات (وقد حسبت أنني نسيتها كلياً)، سمعت خبراً أحزنني حقاً. اتصل بي سمير من ديترويت وقال في معرض الحديث «إلياس الأخرس أعطاك عمره». يا حسرة، إذن لن نلتقي عندما أزور الكفرون. ليتني كنت أؤمن بحياة أخرى وراء هذا العالم فأعزي نفسي بلقائك بعد عمر طويل. لا أظن أننا سنلتقي بعد الآن. أنتَ، لا شك، تريد أن تكون هناك حياة أخرى كي تلتقي بابنك الذي قُتِل في عز الفتوة.

فيما يتعلق بي، قد تظن أنني لا أذكر شيئاً من هذه الأمور. صدّقني، أذكرها بوضوح كلّي. كيف ولماذا لا أدري. الضيعة وأناسها وينابيعها، وتلالها وأوديتها وطيورها وطرقها وأزهارها وأشواكها وأحزانها وأفراحها شرّشتْ في نفسي. لا أحد، لا شيء يقتلعها من نفسي. وكلما ذبلت شجرة حياتي، كلما نبتتْ شجرة أخرى من جذورها العميقة العميقة.

□ □ □

اهْبِطْ أَيُّهَا المَوْت

نتراجع عن حافة الشير الذي يطل على شلالات نهر البوتمك الكبرى ونجلس على مقعد منعزل. يظل دوي المياه الغاضبة يعلو فوق كل الأصوات. أغمض عيني وأستمع لأصوات النهر كما أصغي لموسيقى عاصفة.

أُحدّق بعيني حبيبتي. أحدّق لوقت طويل فتبتسم وتسألني بشيء من الاستغراب : ما بكَ ؟

- لا شيء. لا شيء أبداً. أحاول أن أرحل في عينيكِ.

تتسع ابتسامتها فيما تعود هي أيضاً تدريجياً من عالم الأحلام. تتحول ابتسامتها إلى تساؤلٍ فاستغرابٍ وتختلط بتطلع ساخر شبه إتهامي(أو هكذا بدا لي) : أين كنتَ ؟ لست معي.

- وأنتِ لستِ معي.
- أنتَ لستَ في هذا العالم بتاتاً. يبدو لي أنك تمر في حالة هذيان أو جنون.
- أظن أنها حالة شِعرية. الشِّعر، الشِّعر، هل هناك ما هو أروع من فضاء الشِّعر ؟
- فضاء الموسيقى.
- كلاهما واحد.
- ولكنك غائب عنّي كلياً. خرجنا معاً لنتكلم حول واقعنا. ماذا نفعل ؟
- أنتِ أيضاً غائبة عني ولم ترجعي بعد من رحيلك.
- كنتُ أتساءل متى نكبر وماذا سيحلّ بنا وهل سنتوقف عن الحب. هل سننشغل عن حالنا بحاجاتنا الأساسية ؟

إنها تفكّر بأمي. كنتً قد نسيتها. خرجنا كي ننساها. لذلك أسأل حبيبتي بشيء من الحدّة : هل من الضروري أن تذكّريني بها ؟
ـ إنها صورة لمستقبلنا.
ـ وهل من الضروري أن نفكّر بمستقبلنا دائماً ؟
ـ لا. أبداً. واحدة من الأفكار التي تعبر الذهن شئنا أم أبينا. يظل الحديث عنها أفضل من الكبت.
ـ صحيح.
وأصمتً لبرهة ثم ألف ذراعي حول كتفي حبيبتي وأقول : لن نتوقف عن الحب. لن نترك أنفسنا نتجاوز الحدود التي لا يمكن بعدها أن نسيطر على حياتنا. أتمنى ألاّ نترك أنفسنا.
ـ كيف ندرك أننا نقترب من الحدود ؟
ـ أرجو أن ندرك. لم نختر ولادتنا، على الأقل يجب أن يكون بإمكاننا أن نختار موتنا.
وتحتج حبيبتي : أرى حوارنا غريباً.
ـ أنتِ على حق.
ـ من ناحية أخرى نكبت دائماً تساؤلاتنا الحرجة.
ـ نعيش حالة شعرية عابرة. وطالما نعيشها لا أجد ضرورة للعودة إلى الواقع والتحليل. لنتمتع بها فقط. كم مرة في العمر نفلت من دورة الواقع.
وأرى الابتسامة الساخرة تضيء وجهها فيما تتوجه إليّ : في حالتكَ يجب أن تسأل كم مرة في العمر تعود إلى الواقع.
ـ الحلم، الواقع. ما الفرق بينهما ؟ ليس هناك حدود فاصلة. ربما كلاهما وجه لحقيقة واحدة.
ـ إذن ماذا تقصد حين تتحدث عن الفجوة بين الحلم والواقع ؟
ـ لا أقصد انفصام الحقيقة.
وتقاطعني حبيبتي : الحقيقة ؟ ما هي الحقيقة ؟ هل هناك ما يمكن تسميته الحقيقة ؟ وإلاّ ما معنى قولك بالحقائق النسبية المتناقضة ؟ ليس هناك حقيقة مطلقة. الغيبيون وحدهم يؤمنون بذلك.
ـ صحيح، ولكن لماذا نعود للتحليل.
ـ لنتحرر من التساؤل حول حياتنا.

دون تساؤل ظللتُ أرحل في عينيها باتجاه الماضي والمستقبل وفي أعماق الحاضر. لن أسألها بماذا تفكر. لو سألتني هي بماذا أفكر هل يمكنني أن أخبرها دون انتقاء ورقابة وتشويه ؟ هي أيضاً يجب أن تكون في رحلة خيالية. ترى تتذكر لقاءنا الأول بالوضوح الذي أتذكره ؟

تابعتُ رحيلي في فضاء عينيها فيما نصغي لصخب الشلالات. قلت : تذكرين الترتيلة السوداء التي تعلمناها في آن أربور في مطلع الستينات في عز انتشار حركات الاحتجاج في سبيل حقوق السود المدنية وضد حرب فيتنام. وبصوت منخفض ردّدتْ حبيبتي :

اهبط أيها الموت، اهبط

اهبط إلى سافانا، في جورجيا

في أسفل ياماكرو

وابحثْ عن الأخت كارولينا

قاستْ طويلاً في كرومي

وعانتْ حر الأيام

إنها تعبة

ونكمل معاً :

اهبط، أيها الموت، واحملها إليّ

وتتساءل حبيبتي : ما الذي ذكّرنا بها الآن ؟ مضى زمن بعيد على حركة الحقوق المدنية للسود ؟ تراها عاملة المصعد السوداء ؟

ـ ربما موت أبي وأبيك، موت طائر الحوم وموت البلاد وأمي.

ـ كنتَ تفكر بذلك ؟

ـ وجدتُ نفسي أرحل إلى زمن الطفولة في الكفرون.

ـ وأنا كنت أستعيد الماضي، مع الأسف بضوء الحاضر.

ـ لماذا لا نتحرر من الماضي والحاضر ؟

ودون أن تجيب، عادت حبيبتي تنشد بصوت منخفض مقاطع أخرى من الترتيلة وأنا أحاول أن أرافقها :

لا تذرفوا الدموع، لا تذرفوا
الأخت كارولينا لم تمتْ
أيها الزوج المكلوم القلب، لا تبكِ
أيها الإبن المكسور القلب، لا تبكِ
أيتها الإبنة المتروكة المستوحدة، كفاكِ بكاء
إنها راحلة فقط إلى وطنها

توّقفنـا. أتسـاءل إذا كـان الموت عودة إلى الوطن وأين وطن أمي. أعـود أرافـق حبيبتي التي يجب أن تكون قد تذكّرت مقطعاً آخر فاستأنفتْ ترتيلها الـدافئ وقـد أشرقتِ الابتسـامة في سماء عينيها :

شاهدتُ الموت الحبيب. شاهدتُ الموت الحبيب
مقبلاً مثلَ نجمةٍ تهبط نحو الأرض
ولم يُرعب الموتُ الأخت كارولينا
كأنه صديق تهفو لاستقباله
وهَمَسَتْ أنني راحلة إلى وطني

والتجـأنـا إلى صمتنـا المضطرب. كيف ترى أمي المـوت ؟ هـل تراه حبيبـاً ؟ هـل تراه منقذاً ونجمة تهبط إلى الأرض ؟ هل يرعبها ؟ هل تتوق لاستقباله ؟ كل مـا أعرف أنهـا تردد باستمرار أن الموت حق وصدق. ربما تحس أننا نتمنى لها أن تموت وترتـاح ؟ الشيء الوحيـد الذي أصبحتُ متأكداً منه أنها ما زالتْ تجيد لعبة بث الشعور بالذنب في نفسي.

أمس طلبتْ عنباً، فقلتُ لها إنه ليس لدينا عنب في الوقت الحاضر. ورأيتها فجأة تتمدد وتغمض عينيها وترخي ذراعيها جانباً وترتجف قائلة : أريـد أن أموت. سـأموت. ستنـدم إذا لم تجلب لي عنباً.

وأضحك من أعماق قلبي. أضحـك في هـذه الفترة وأنـا أسترجع كلمـاتها ولكن حبيبتي تعيدني إلى الواقع وتقودني مرة أخرى بـاتجـاه الشير الـذي يشرف على الشلالات لنستطلع سِرَّ تجمع عدد من المتفرجين. وجدناهم يحيطون بشاب وشـابـة يستعـدان للهبوط إلى النهر حيث ينحدر الشير عمودياً. بدت تلك هوايتهما، خاصة الشاب، وهما يملكـان أحـدث وسـائل تسلق الصخور. يُحكمان ربـط حبـال ملونـة إلى جـذع شجرة نمت على حـافـة الشير وانحنت قليلاً لتشرف على النهر تماماً كتينة «الضهر» في الكفرون. ويجب أن يكون قد أحسا بتزايـد تجمهر

الناس حولهما فأمعنا في لعبة التشويق. يدققان بكل شيء ويتفننن ظاهر فيزداد ترقب الناس ممزوجاً بمختلف عناصر الإقبال على مراقبة مغامرة خطيرة. تفحصا انحدارات الشير مرات عديدة ومن زوايا مختلفة، وتدربتْ الشابة على أسلم طرق الإنحدار والتسلق في مكان سليم. وأخيراً، تماماً قبل أن يبدأ القنوط يتسرب إلى الجمهور وينفضّ من حولهما، هبطت الفتاة أولاً بتأن وحذر، ثم تبعها الشاب بسرعة خاطفة. وما أن وصلا إلى أسفل حتى ارتفع التصفيق ووجدتُ نفسي أصفق مع الآخرين، ولكن حبيبتي ظلت متحفظة فقد رأت اللعبة مجرد مغامرة طائشة من قبل شباب مترف عبثاً يحاولون ملء الفراغ الهائل في حياتهم.

وخطر لي شخصياً أننا اعتدنا أن نسلك الطريق السليمة ونتجنب المغامرات حتى تُفرض علينا فرضاً.

وفجأة، ومن دون استعداد، وجدتُ نفسي أقترب من طرف الشير أبحث عن مكان جانبي سليم للانحدار فتصرخ حبيبتي أن أتراجع. بدلاً من ذلك أتوجه إلى المنحدر الجانبي وأبدأ الهبوط دون حبال أو أية وسائل فنية أخرى غير ما تعلّمته في طفولتي في الكفرون. أنحدر بسرعة ودون تردد قبل أن أترك مجالاً لحبيبتي (أو بالأحرى لنفسي) أن تقنعني بالتراجع. دون وجل انحدرتُ لملاقاة النهر متجاهلاً صراخ حبيبتي بالعربية وإعلاناً رسمياً ينذر بخطر الموت. بعد أن تجاوزتُ مسافة لا تسمح بالعودة دون إحراج، ترددتُ في أكثر من مكان ولكنني كنت أجد أخيراً موطئاً سليماً أو غصن شجرة أتمسك به. ليس هذا المكان أصعب من صخور نبع الشير في الكفرون ولا عش الشوحة ولا منحدرات جبل السيدة. هذا ما كنت أفعله في الطفولة، فلم الخوف. صحيح أن ابن عمي سقط مرة وفجّ رأسه. المهم أن أترك الأمر لحدس الطفولة. وهكذا كان. حدس الجسد لا يخون. أركّز نظري فلا ألتفتُ إلى شيء. أهبط بحذر خطوة خطوة. عبرتُ نصف المسافة. أصبح المكان أكثر انحداراً. لا يمكن الرجوع. أتقدم بشكل متعرج. أعبر ثلاثة أرباع الطريق. تستحيل العودة. إذن لابد أن أقفز بعض الأمتار إلى صخرة مسطحة. أتردد قليلاً. أقفز وأنط مثل كرة حالما تلمس قدماي الصخرة. ألتفتُ إلى فوق لأطمئن حبيبتي فلم تبدر منها أية حركة.

أتقدم من حافة صخرة تدخل قليلاً في النهر. أجلس أصغي للهدير، أراقب التموج، يستقبل وجهي الزبد المتطاير بانتشاء، أتنفس عميقاً، أزفر كل المكبوتات في صدري. ألاحظ جذع شجرة شكّل جسراً طبيعياً إلى صخرة صمدت في وجه المياه المتدفقة آلاف السنين. أتقدم من الشجرة - الجسر، أتفحصها للتأكد من ثباتها، أعبرها دون تردد إلى الصخرة - الجزيرة، وأجد نفسي محاطاً بالأمواج والصخب. لا أتطلع إلى فوق خوف أن أرى حبيبتي. لم

أعد أسمع صراخها الغاضب. وأشعر وسط التدفق أنني أصغي للسيمفونية التاسعة. لأول مرة أشعر أنها تنفجر من داخلي ولا تقبل إليّ من بعيد ومن الخارج. تُولد وتتوثب في أعماقي، تلفّني مثل عاصفة، ألتحم بها وأدخل في جوفها. أسلّم نفسي لتموجاتها، أضيع فيها، تحملني في مختلف الاتجاهات في آن. توحّدنا فانتهى الانفصال كلياً. ما أروع الاندماج الكلي.

أيتها الصديقات والأصدقاء
لنتحرر من الكآبة
ونغنّي معاً نشيد الفرح
في ظلال أسراب الحوم
لنغنّي للفرح الطالع من أعماق الأرض
لنفتح صدورنا للهواء المفعم بالماء
المياه. المياه. المياه.
في البدء كان الماء.

فجأة أنفصل، وأتطلع باتجاه حبيبتي فأجدها مازالت تلوّح لي بقلق وتوتر أن أعود وقد تجمّع حولها بعض الناس. أدرك سخف ما قمتُ به. مجنون أنا ؟ ماذا أفعل ؟ لماذا ؟

وأصاب بالخوف فلا أتمكّن من الحراك. لا أستطيع أن أعود لو أردت. بَدَا لي أن عبور الشجرة ـ الجسر محفوف بالخطر. يجب أن أتغلب على الخوف وأعود. لا أتمكن. يزداد الخوف. يتحول إلى رعب. يجب أن أتغلب على خوفي. كيف ؟ لا أستطيع. أصرخ في نفسي أن أهدأ. أعود أتأمل التدفق. أصغي لموسيقى تدفق المياه. أندمج في موسيقى النّهر. أستعيد سيطرتي على أعصابي. أنبطح على حافة الصخرة وأصوّب نظراتي إلى المياه المتدفقة نحوي. تقبل شرسة مثل آلاف من النمور الجائعة.

مرة أخرى تخترق ذهني صور قنطرة مطحنة الكفرون. أقترب منها دون أن أنزع ثيابي. أقترب. أتعرض للمياه المنقذفة. أضحك بنشوة مصرّاً على عدم الانسحاب. أغنّي. يضيع صوتي في هدير المياه. يرتفع صوتي أكثر فأكثر ولكنه لا يطفو فوق الهدير. أنزع ثيابي المبللة وأتمدد على صخرة الكدان تحت الدلبة الكبيرة في وجه الشمس. دمي يسيل، أنصهر بهدير المياه وتوهج الضوء.

طائر ضخم يحلّق فوقي. إنه نسر. ليته كان طائر الحوم. مثلك أرحل دون استقرار عابراً القارات. أعبر العالم معرّضاً للقنص. نعم خسرتُ الكثير من ريشي، ولكن ها هو ينمو لي

ريش جديـد فـأحوّم دون وجل فوق الأنهر في مختلف القـارات. كم أتوق لأرى الشمس تصعـد جمراً متوهجاً فوق مجد النيل المتمدد مثل عرق أخضر في جسد الصحراء.

وأصرخ من الأعماق لعمي يوسف : أفكر بكَ هذه اللحظـة بـالـذات. تقتحم عـالمي مثل أبي وأمي وطائر الحوم. أنتَ أيضاً طائر حوم فريد. لن أنسى يوم كـادت أن تجرفـك الطوفـة. جرفتك إلى حتفـك فقفزت من حلاوة الروح متفلتـاً من قبضتهـا وتمسكتَ برسن بغلـك الـذي كان أيضاً يكافح لينجو بحياته العزيزة عليكَ كحياة فهيم وسعيـد. وعرف البغل كيف يمـاشي التيار فأنقـذك. احتفلنـا بنجـاتكمـا حول الموقـد. أكلنـا جوزاً وزبيبـاً وملبنـاً. وأطعمتَ البغل شعيراً بدل التبن هذه المرة. يومها استمعتُ بشغف إلى الحكايات التي رواهـا جـدي سليم عن حوادث طوفة سابقة لم تعرف الكفرون مثلها من قبل ولن تعرف مثلها من بعد. جـذور الـدلبـة الكبيرة العارية في بستـان الفرب لا تزال شـاهـداً على ذلـك. نجوت أنت، إنمـا عشت طويلاً لتشهد موت ابنك سعيد المفجع. في الواقع إنني أضع عليـك بعض اللّوم ولكنـك تصرفت بقـدر ما تعرف ولا أستطيع إلا أن أشاركك حزنك. أذكر يوم جئتَ بسعيد إلى بيروت وأخذنـاه معـاً للمستشفى لمعالجة ورم خبيث في ركبته. قال لـك الطبيب إن الورم سرطـان ولابـد من قطع ساقه. رفضتَ رفضاً باتاً وأعدته إلى الضيعة. وسمعتُ فيمـا بعـد أنـك لجـأتَ إلى من وصف لـه الكي. أتصور سعيداً يصرخ صراخـاً حـاداً حين يمس السيخ المحمّى ركبتـه ويتصـاعـد دخـان احتراقه إلى عينيه. كويتموه مرات دون أن يتحسن. على العكس، ساءت حالـه. وأخيراً، لست أدري من اقترح عليك أن يبيت ليلة واحدة بمفرده في مغارة مـار إليـاس. هل حقـاً حملتموه إلى مغارة مـار إليـاس وتركتموه يقضي الليل وحـده هنـاك ! هل نسيتم القصص المخيفـة عن هذه المغارة ؟ كم مرة، أخبرتمونا حكايات عن رجال شجعـان تقبلوا التحـدي وذهبوا ليلاً إلى مغارة مار إلياس خارج الضيعة فـأصيب بعضهم بـالجنون وبـال بعضهم الآخر في سراويلهم من الخوف ؟ كيف تنسى تلك الحكـايـات ؟ كيف خطر لكم أن تتركوا سيعـداً الصغير الرقيق في ظلمة المغارة البـاردة ؟ لـذلـك لا أستغرب أنكم وجـدتموه ميتـاً في صبـاح اليوم التـالي. هل حصل ذلك حقاً، لا أريد أن أصدّق ؟

وأحسستُ بـانقبـاض وأنـا جـالس على تلـك الصخرة وسـط تـدفق شلالات نهر البوتمـك الكبرى. هل حملتُ نفسي إلى تلك الصخرة كمـا حمل عمي يوسف سعيـداً إلى المغـارة ؟ أي جنون ؟ أي سخف ؟

ونهضتُ دون تردد. عبرتُ فوق الشجرة ـ الجسر إلى ضفة النهر. لم أخف لكثرة ما أردتُ النجاة. ودون أن ألتفت إلى الوراء تسلقت الصخور لأواجه غضب حبيبتي : مجنون ؟ حقاً إنك مجنون. لا أدري ما يحدث لك أحياناً. ماذا تريد أن تثبت ؟

لم أجد ما أقوله غير «لا أدري» فهزتْ رأسها وأسرعت نحو السيارة. وتبعتها بعد أن التفتُ إلى الشلالات أودعها : لو أتحول إلى نهر متدفق مزبد فأتخذ شكل الهواء، لو أحتضن الصخور، لو أنطلق نحو البحر فاتحاً ذراعي مثل جناحي طائر الحوم. لماذا موت سعيد ؟ لماذا قَتْلُ طائر الحوم ؟

رغم القتل تقبل في مواسمها كالعادة. تقبل أسراباً أسراباً. تحلق كبيرة شامخة مهيبة في مسافات شاسعة بين زرقة السماء وظلال الأشجار في النهر، فيسرع الصيادون إلى بنادقهم الصدئة. وفي برهة تمتلئ السماء بطلقات النار كأن حرباً قد أعلنت ويترنح الريش في الهواء.

تتساقط طيور الحوم واحدة واحدة. ويحملها الصيادون فخورين بإنجازاتهم الخارقة كأنهم ربحوا حرباً طال أمدها. لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ هل يمكن أن تُفْهِمُوني لماذا ؟

وأستيقظ سالماً من رحلتي الخيالية، فأسرع لألتحق بحبيبتي. لا تلتفتْ إليّ. أعتذر. لا تقبل اعتذاري. نتابع رحيلنا باتجاه جبال شنندوه. هي أيضاً تريد أن تتسلق القمم وتحدق بالعالم. نريد أن نرى له شكلاً بدل أن نغرق في هذه التفاصيل التافهة المتراكمة. نريد أن نرى العالم رحباً يمتد في جميع الاتجاهات وبلا وصول. نتسلق قمة بعد قمة فما يغيب أفق حتى يطل أفق أوسع.

كانت حبيبتي ما تزال تحاول الاحتفاظ بغضبها، ولكنها وجدتْ من المناسب أن تقول بعد عدة محاولات لمراضاتها : من قال لكَ إنني أريد مشاهدةَ نهايتك المفجعة ؟

ـ ومَن قال إنني أبحث عن نهاية مفجعة ؟

ـ ما هذا التصرف الجنوني ؟

ـ حياتنا ضحلة.

ـ أقول لك لا فائدة من الهرب.

ـ تظنين أنني أحاول الهرب ؟

ـ ماذا تسميّ تصرفاتك ؟

ـ لا أدري.

ونهرب معاً إلى الكفرون باتجاه جبال شنندوه الشامخة الخضراء.

حَنِيـنُ القَصَـب

أحدق إليها مراقباً وجهي في وجهها. ربمـا ترى وجهها في وجهي. يتحول العـالم إلى نهر. كل شيء يتحرك، ينمو، يتموج، يعصف، يتدفق. تتقاذفنـا التيـارات. تهبـط بنـا وتصعـد. يدخل ملحها إلى أعماقنا.

وأسمع حبيبتي تقول : أنا سأقود السيارة.

ـ لماذا ؟

ـ هل يحق لي ؟

ـ طبعاً. ولكن أريد أن أعرف لماذا الآن ؟

ـ لأنكَ مأخوذ بتداعياتك.

ـ ألفّ ذراعي حول كتفها وأقول : لا يهمكِ.

ـ بلى، يهمني.

تقاطعني جازمة وتضيف : لا أريـدكَ أن تقوم بهـذه المغـامرات البهلوانيـة في حضوري مرة أخرى. مفهوم ؟

ـ مفهوم.

وتوجهنـا إلى شننـدوه، تـاركين وراءنـا طقوس الجمـاهير والشـلالات، لنمـارس طقـوس الغابات والجبال. وتـذكّرتُ فجـأة الشريـط الجـديـد فقلتُ لحبيبتي : هل أخبرتـكِ أن سـامي أرسل لي من البرازيل شريطـاً لنسيم المسوح ؟ التسجيل غير جيـد، مع الأسف، ولكن الصوت هو هو كما عرفته في الطفولـة. الآن أستطيع أن أحكم على شعره، إنمـا أكره أن أغتـال الحلم. لن أنظر في شعره. سأسمعه فقط. صوته هائل. حيويته نـادرة. روحـه ريح في أوديـة سحيقـة.

في أواخر عمره ترك الضيعة والتحق بأولاده في البرازيل. مات في الغربة. ظل يشرب العرق ويغني حتى اهترأت كبده.

وتدفقتْ تداعياتي حول المغني الشاعر بحنين القصب :

سهرنا تلك الليلة مع القمر حتى الصباح. لم أعد أذكر المناسبة، ولكن المخاضة كانت عامرة. على الضفة الجنوبية تجمهر عدد كبير من أهل الضيعة حول مائدة حافلة بالمازوات والعرق. نسيم المسوح (أو بالأحرى نسيم النبع كما يفضل أن يلقب نفسه) يسترسل في غنائه العتابا والميجانا والمعنى والدلعونا والناس حوله يصفقون ويتأوهون ويشاركونه الردة بعد الردة. وعلى الضفة الأخرى التفَّ جمهور آخر من الشباب ممن عاشوا في المدن، وأصحابهم، حول جورج الحمصي (واسمه على كسمه) يعزف على العود ويغني أغنيات لعبد الوهاب وفريد الأطرش وغيرهما ممن بدأ الناس يسمعونهم على الراديو في تلك الوقت.

بَدَا واضحاً أن هناك تنافساً بين الجماعتين. وكان يخشى أن تنقلب الحفلة إلى عِرَاك. طبعاً انضممتَ إلى جماعة نسيم النبع متضايقاً من صراخ الجماعة الأخرى.

ولكن نسيم لم يكن منفعلاً، على العكس، كان مرحاً واثقاً بنفسه متألقاً كعادته. من أعماق قلبه وبحة نادرة مثل حنين القصب يتنهد مجروحاً «أو...ف» فيصرخ الجميع من الأعماق «أو...ف». يطلع صوته مثل الشمس من وراء الجبال في الشرق ومثل غيمة تظلل الناس في يوم حار :

يا يابا، يايا با، يايا... با

بْنيّ عــالمحبي جــرّعيـني[1]	و مِنْ مَنْهَـلْ شفـاهـك جَرّعيني
عيـونـكْ سـودْ منهم جَرّعيـني	بميـلْ الحب عـالاربـعْ هـدابْ

وترتفع الكؤوس والأصوات تجاوباً، ويصرخ أحدهم وقد فتح ذراعيه إلى أقصى ما يمكن «حيا دينك يا نسيم النبع».

1) جرّليني (الهمزة تتحول إلى عين باللّغة الدّارجة في هذه المنطقة) أي شجّعيني.

ويتبع ذلك بوصلة من الميجانا :

مْنِعشْ هَـــــــواكِ   يـا روابيْ بـلادِنـا

فيردّد الجمهور وراءه :

منعش هـــــــواك   يـا روابي بـلادنـا

تهتز الرؤوس طرباً وتصفق الأكف فتنضم إلى حلقتنـا جمـاعـة من الفريق الآخر. تتوسع الحلقة وتزدحم فأتسربَ إلى الصفوف الأمامية. كانت المائدة عـامرة بكؤوس العرق والمـازوات فتذكرتَ جوعي. مَسْمَرني الخجل في مكاني، ولكن نسيم أومأ لي فتقـدمتَ نحوه بتردد. غمس قطعةً من البندوره بالملح وقـدّمهـا لي، وأجلسني قربـه. احمرّ وجهي خجلاً واعتزازاً، وتمنيتُ لو أن صديقتي الصغيرة كانت حـاضرة. لا أدري لمـاذا فكّرتَ بهـا تلـك البرهـة. لا أظن أنني كنت بحاجة أن أثبت لها أي شيء. لابد أن أكون قد أثبت نفسي في بستان الذرة. إذن، أردتها أن تشاركني فرحي الهائل !

ويتنهد نسيم النبع من الأعماق مرة أخرى. يطلع صوته متدفقاً مجلجلاً :

يـا يـابـا، يـا يـابـا، يـا..... يـابـا   يـا يـابـا، يـا يـابـا، يـا.... يـابـا

حبيبي هـــاتْ أوتـــاركْ وعـُـوْدَكْ   وغنّي لاخـــوانـــــكْ وَعـُـــوْدَكْ

الظرفْ ريّـاكْ يـا شـاعرْ وَعوّدَكْ   على عـزفْ النـاي وحنين القَصَبْ

وتتصاعد التأوهات، فيسترسل بوصلـة من الميجـانا بعـد أن يصب في جوفـه كـأسـاً من العرق، ويتوجه إلى مطربية[2] جميلة كانتْ تجلس قربه :

هدّي خيامَكْ وارحلي عجرودنا

وتردّد هي مع الجمهور :

هدّي خيامكْ وارحلي عجرودنا

يدق كأسه بكأسها ويتأوه واضعاً كفه على كتفها :

يـابـا، يـايـابـا، يـا.. يـابـا

إذا صيّفتْ بِقِمّـــــــةْ جِرْدنـــــا   إلَـكْ لحمْ الصـــدرْ فـوراً جَرَدنـا

وبصـدرْ مـا نخاف من لمـا جَرّدنـا   رمـحْ يـدقْ سِنّـو بـالكعـابْ

2) يشار إلى الغجر أو النّور بالمطاربي في هذه المنطقة لأنهم يزاولون الطرب فيشار إلى الغجري أو النّوري بـ «مطربي» وللنّورية بـ «مطربية».

ويصرخ الجمهور من الأعماق فيتابع دون توقف بوصلة من الميجانا :
لولا الهوى ما صار أبوكِ عمنا

ويردّد الجمهور الوصلة مصفقاً، فيقف ويشاركهم التصفيق متنقلاً بين جوانب الطاولة مشجعاً على المشاركة في الغناء :

وعَوَايدْنا كَرَامْ الضيفْ   مهما الدهر علينا يجورْ

أيضاً يردّد الجمهور ذلك البيت وراءه، فيكرره هو مرة ثالثة حتى إذا ما أحس بالاندماج الكلّي تابع :

يا ما شربْنا السَلوى ومَنْ   وقَلبكْ قاسيْ ما بيحنْ
هالمرّةْ منعبي الدنْ   ونِشربْ من خمرْ الحاكورْ

ويشارك الجميع مبتهجاً فيما يصفّق معهم وينتقل بحركات رشيقة :

وعَوَايْدنا كَرَامْ الضيفْ   مهما الدهرْ علينا يجورْ

وينتقل إلى مقطع آخر، ابتهجتْ له المطربية بشكل خاص :

عوايدنا شدْ الخيلْ   ونرمي العدى بذِلْ وويل
ما منخافْ نهارْ وليلْ   وكلْ ماشقْ علينا النورْ

وما ينتهون من الردة حتى يُلحقها بوصلة أخرى :

دِرغْ مزرّدْ يا حبيبْ   مننسُجْ من غزَلْ داوودْ
مِنْرَعّي النَعْجةْ والذيبْ   ومننظّمْ معنى على المرصود

الليلي ليصيحْ الديكْ
قَمَر شَق من الديجورْ

ويتعالى التصفيق فينضم إلى الحلقة عدد من الفريق الآخر. ويشير نسيم إلى راع أن يلعب على مجوزه، فيقفز وسط الساحة ويشكّل الشباب والشابات نصف حلقة من الدبكة.

وأجد نفسي أراقب المنظر بشغف قرب صديقتي الصغيرة التي كانت قـد حضرت فجـأة. أُعلّمها خطوات الدبكة فيما تُعلّمني أسرار العشق عند بزوغ الحياة.

وتَعِبَ الراعي والشباب فـالتجـأوا مرة أخرى إلى نسيم النبع الـذي وضع كفـه على خـده وتأوه دون تردد :

يـابـا يـابـا، يـا.... يـابـا

أنـا برخّصْ بحـالي وإنتْ غلّيتْ	وأنـا برّدْ غليلي وانتْ غلّيتْ
وأنـا بخمـدْ حِسـامي وانتْ غلّيتْ	سنـانْ الرمـحْ بصـدورْ العِـدى

ويتبع ذلك بوصلة ميجانا : علّي يا جناحي واهبطي بديارْ حبابنا

ويستمر الغنـاء متـأخراً في الليل متسللاً مثـل الخَـدَر إلى مخـابئ غـامضـة في أعمـاق النفس. في الأوقات المنـاسبـة يتنقل نسيم النبع بين أحواض العتـابا والميجـانا والزجل. مرة أخرى يحدق بالمطربية الجميلة ويتوجه إليها :

فيـكِ تِشْحريني شبْ وشـايبْ	وفيـكِ عـالشبـابْ ترجّعينيْ
فيـكِ تجعليني قُـومْ حـاربْ	وفيـكِ عـالأعـادي تنصرينيْ
فيـكِ تجعليني شمـعْ دايبْ	وفيـكِ بـالمُـزار تشعّليني
فيـكِ تجمعيني بـالحبـايبْ	وفيـكِ من حبيبي تحرميني
فيـكِ تعمليني قَمَرْ غـايبْ	وفيـكِ بـالصبـاحْ تطلّعيني
فيـكِ تعمليني تلـجْ دايبْ	وفيـكِ بربـعْ تكي تجلّـديني

واستمر الغنـاء إلى أن خـدّر العرق العقول وتعبتْ الجفـون. تفرّق النـاس بعـد أن تـأبـط جميل ذراع الشاعر وحمله إلى بيته. أمـا نحن الأطفـال فبقي بعضنـا عنـد النهر ينتظر غيـاب القمر. ولعبنا «لِمْ الريش» ودبكنا فكانت أقدامنا الحافية تضرب الأرض بتحد. ومنـاديلنـا تـدور في وجه السمـاء بـانتشـاء وكبريـاء. وقبل أن يتسلل الصبـاح لجـأتُ إلى العرزال الـذي صنعـه والدي من الغار ونمتُ لحظةً أسندتُ رأسي إلى المخدة.

المَوْتُ فِي المَنْفَى

عندما انتهى الشريط علّقتْ حبيبتي أن صوته جميل ولكن شعره عادي. وأرادت أن تسمع موسيقى كلاسيكية في الوقت الذي كنتُ أود أن أسمع عزفاً على المجوز فنظل في أجواء حنين القصب. وكان ما أرادتْ، ولكن ذلك لم ينتشلني من الأجواء التي كنت أعيش فيها. بصمت توجهتُ إلى روح نسيم أعبّر عن امتناني إليه وحزني على موته في الغربة وعن أسفي أنه مرّ يودّعني فلم يجدني.

شكرته على بيت عتابا اقترن في وعيي بموت أبي فردّدتُه بصوت كئيب حتى كدت أصل إلى شفير البكاء :

بَكيتْ ويا يومْ تَوديعكْ نِحتْ فيهْ	وقلبي صخرْ إزميلكْ نَحَتْ فيه
وطيفكْ لو أتى زائرْ نحتفي فيه	بعواطفْ مِثلْ قطراتْ الندى

أقول لك يا نسيم النبع إن هذا أجمل شعرك، ولكنك أنت أجمل من شعرك. متَّ وبَقيتْ الأسطورة. ترى من أجل ذلك كنتَ ترفض أن تنشر شِعرك وأن تسجّل صوتك ؟ التسجيل الذي أملكه جرى سراً، لابد. أؤكد أنك كنت تعرف بحدسك أن الحقائق تقتل الأسطورة. تكفينا الحقائق القليلة التي نعرفها. نحبك كما أحببناك في الطفولة. إنني أعتز بالأبيات التي كتبتها لي، عندما لم تجدني، على دفتري الذي ضم مجموعة من قصصي الأولى ؟

نفحات نسيم النبع إلى حليم تقاطيع زجل

يـــا حليمْ ويـــا كريمْ ويـــا عليمْ	إسمـع دُعَـاءُ البـائِسْ المضنى نسيمْ
إمنـحْ خيـالَـكْ مِنْ عِلوْ قبّــةْ سماكْ	ويسبق خليل جبران إبن خيّ حليم
امنـحْ خيـالَـكْ من علـو قبـةْ سماكْ	لحليمْ البيتغي جَنّــــةْ رضــــاكْ
يـــا إلٰهي مــــا إلي فعـلاً سـواكْ	إنتَ الحكيم إنْتَ العليمْ إنتَ الرحيمْ
إنت الحكيمْ إعطيه كـافـةْ حكمتَـكْ	وانتَ المُربّيْ ونَحنْ نَعْرفْ تِربتَــكْ
واجعلْ حليمْ يكونْ جانبْ كرستَـكْ	تنتبعــو ونشــوفْ خــــطُ المستقيمْ
تنتبعــوا ونقراْ حكــايـــاتْ وقصصْ	بـــالمـــدارسْ كلمـــا رنّ الجرسْ
حتى عصـــــافيرْ اللي ضِمنْ القفصْ	تغرّدْ تغنّيْ من أنـــاشيــــدْ الحليمْ

يا نسيم النبع أخجلتني فعلاً وقد أخفيتُ هذه النَفَحات حتى الآن. أسجّلها لأنها نفحـات منك وإن لم تكن لي أية علاقة بهـا وليست على مستوى شِعرك كمـا أتخيلـه. الكتـابـة ليست سبقاً. أعرف أن الزجل كما يمارس «مكـاسرة» و «مقـاولـة» و «مبـارزة». أقول لـك إنني بـدأتَ الكتابة تحت تأثير جبران. كان هو بدايـة الطريق، ولكنني اخترتُ طريقـاً آخر. ثم يـا نسيم أنت تعرف أنني لست إنساناً متديناً فلا أبتغي جنة ولا أؤمن بوجود خـط مستقيم، بل بخطوط متقاطعة، ولكنني أؤمن بتغاريد العصـافير في القفص. نحن جميعـاً نغرّد في القفص. نريـد أن نتحرر من الأقفـاص، أن ننطلق في الأجواء الفسيحـة، أن نحلّق فـوق القِمم والأوديـة، أن نعبر الآفاق، وأن نموت قبل أن تنكسر أجنحتنا، وأن نبقى أسطورة. هل غنّيتُ طائر الحوم ؟ مثلـه رحيلنا الدائم وموتنـا. تعلمنـا منـه فنون التحليل والتشكل. رفيقنـا هو والأشجـار والأنهر وقمم الجبال.

أخـاف يـا نسيم انني بتسجيل هـذه الحقـائـق القليلـة من بحرك قـد أسهمتُ في اغتيـال الأسطورة. لماذا أصرُّ على نشرها ؟ لا أدري. اغفرْ لي. لو أستطيع أن أسمع الناس صوتك ربمـا غفروا لي ذنوبي. زرْتُ النبع هذه السنة ولم أجد قبرك لأضع عليه باقـة زهر. في أي عـالم من أرض البرازيل الواسعة دفنوك يا نسيم النبع ؟ هل يموت النسيم ؟ وهل يدفن النبع ؟

أكاد أصل إلى شفير البكاء. وضع محزن حقاً. بالنسبة لي، لم أبكِ منـذ زمن بعيـد. أظن أنني تجـاوزتُ مرحلـة البكـاء. آه من القهر. أن تكـون في حفرة رطبــة وحــدك ودون وعـد بالخلاص شيء يمزق قلبي. أحس بألم داخل دماغي وفي صـدري ومعـدتي. تعبنـا من الهجرة. جسدك منفي في أميركا الجنوبية وأنا في أميركا الشماليـة. لو نرشق وجهينـا بميـاه نبع الشيخ

حسن يـا نسيم النبع. يجب أن نكون هنـاك عنـدمـا يُقبل طـائر الحوم كي نحميـه من بنـادق الصيادين. أمس قرأت خبراً غريباً. فتاة أميركية مثالية ذهبتْ إلى بحيرة في وسـط غـابـة كي تحمي البط والإوز من الصيادين الذين يجرجرون الطيور البرية المقتولة على الطريق تاركـة دمهـا على الثلـج. اقتربَتْ من الصيـادين وتكلّمتْ معهم بهـدوء عن جمـال الطيـور وبراءتهـا وتناقص أعدادها سنة بعد سنة.

وعندمـا انتهتْ من كلامهـا، قـال لهـا أحـد الصيـادين إنهـا تكسر القـانون وإنـه سيطلب توقيفها إذا لم تتوقف عن إزعاجهم.

ولم تتـوقف معلنـة أن لهـا الحـق أن تـدافـع عن الطيـور كمـا لهم الحـق بقتلهـا. ودعـا الصيادون الشرطة فحضروا توّاً وقبضوا على الفتاة مكبلين يديها وراء ظهرهـا بعـد أن أفهموهـا بأنها كسرتْ قانونـاً ينص على عقوبـة خمسمـائـة دولار أو حبس تسعين يومـاً. ممنوع حمـايـة الطيور يا نسيم النبع، وممنوع على المثاليين أن يعبّروا عن رأيهم بشكل يزعج الصيادين. هل سمعت أنـه يمكن أن يكون هنـاك قـانون يمنـع الاحتجـاج ضـد القتـل ؟ أطمئنـك أن الفتـاة الأميركية ستعود هذا الشتاء للبحيرة وسط الغابـة لتؤكـد على حقهـا بـالاحتجـاج وشطب هـذا القـانون الجـائر الـذي يحمي المسلحين من العزل. ليس عنـدنـا قوانين. عنـدنـا سلاطين.

إسمع، أريد أن أخرج من هوة الحزن. أسعى أن أحلّق في أجوائـك. إنني الآن أخرج من الهوة. أردّدُ في أعماقي بصمت ردّات الميجانا التي طالما ردّدتُها وراءك جماهير الضيعة والقرى المجاورة :

مُنْعشْ هـــــــــــــواكِ	يـــــا روابي بـــلادنـــــا
يحيـــــا الــــزمـــــانْ	اللي جمعنـــــا ولمّنـــــا
لــــــولا الهـــــــوى	مـــا صـــار أبــوك عمّنـــا
علّي يـــــا جنـــــــاحي	واهبطي بـديـارْ حبـابنـا

أرجوكَ، اغفر لي يا نسيم النبع. من ناحية أخرى أحب أن أصـارحـك بـأنني محسود من المطربية لأن نَفَحاتكَ إليها أجمل من تقاطيع الزجل التي كتبتها على دفتري. مهما كان تظل أفضل من تلـك القصص الأولى التي لن أنشرهـا. لا أفهم كيف فـاتـك أن تغنّي قصيـدة لطـائر الحوم الذي كان يعبر بريئاً شفافيات سماء الكفرون.

□ □ □

قِـرَاءَةُ الغُيُـوم

نتجوّل في ممرات جبال شنندوه الضيقة المتشعبة وسط غابات كثيفة ملونة. ألوان مشعة متجانسة تحتار هل تتسارع لتكتشف مزيداً منها أم تجلس وتتأملها دون شبع. تأخـذنـا الألوان حيث شاءت وبالسرعة التي تريد. أشجار صفراء، حمراء، نبيذيـة، خضراء صفراء معـاً، ذهبيـة، عنابية، خمرية، برتقاليـة، رمليـة، قرمزيـة، ألوانٌ متوهّجة، مشعّة، حـاميـة، بـاردة، متموجـة، صاخبة، ساكنة، متداخلة، نقية، صافية، ذابلة، حية.

نتجول وسط الغـابـات دون هـدف، نتوقف لنراقب غزلانـاً تحررت من الخوف واعتـادت النـاس، نقترب منهـا على مهل فتنتصب أذانهـا في الهواء وتتسـع عيـونهـا. أقتطـع طرف غصن طري وأقدمه لغزالة اقتربتْ منا مع ولديها. أتقدم منهـا خطوتين. لا تهرب. أتقـدم أيضـاً. تمـد رأسها وتقضم الغصن. لا تعاود الكرّة. تتـذكر حبيبتي أن لـديهـا فستقـاً فتضع حبـات منهـا في راحتها وتقدمها للغزالـة فتنحبس أنفـاسنـا دهشـة أن جسراً يمكن أن يمتـد بهـذه السهولـة فوق أودية من الخوف والشك.

وتابعنا تجوالنا باتجاه قمة جبل «ستوني ـ مـان» متوقفين بين برهـة وأخرى لنتـأمل لونـاً أو حيواناً أو شجرة فريدة أو مطلاً أو منظراً ما. وصلنا إلى القمـة متعبين (وبعـد وقت طويل) فوجدنا أنفسنا مرة أخرى نشرف على عالم رحب مزهوٍ بنفسه يقبض علينـا من الـداخل فنغرق في تأملات تجاوزتْ كل الأبعاد المألوفة.

أثقال العالم تتهاوى فنتحوّل إلى طيور وغزلان وأشجار مأخوذة بـألوانهـا وأوراق مترنحـة وشمس محجّبة بغيوم شفـافـة بـاردة تسرح في المـدى الرّحب متخـذة الجهـات الأربع مـدفوعـة برغباتها الخاصة.

نجلس فوق صخرة كبيرة مشققة ونشرف على عالم بلا حدود. هل للكون حدود ؟ ماذا وراء ملايين السنين من الضوء ؟ كيف يمكن ألا تكون هناك حدود ؟ هل هناك أي شيء لا ينتهي ؟ هل ينتهي المكان ؟ هل ينتهي الزمان ؟ أين البداية ؟ هل يعقل ألا تكون هناك بداية ؟ أين النهاية ؟ هل يعقل ألا تكون هناك نهاية ؟ ربما العقل، وليس الوجود، هو الذي يملك حدوداً وبدايات ونهايات.

أقول لحبيبتي التي جلست هذه المرة قربي على حافة الشير : في طفولتي كنت أتسلق جبل السيدة كي أراقب أطراف العالم البعيدة، وألمس السماء التي كانت تتهرب مني كلما اقتربت من القمة. كنت أتسلق الجبل علّني أرى البحر فأجده دائماً متشحاً بالغيم والضباب. وفي جبل السائح كانت أشجار السنديان الكثيفة تحجب عني الكون برمته فأغور في شرايين الأرض مع الجذور.

- أنت أسير مقارناتك. انسَ الكفرون. إنها المرجع لكل شيء في مخيلتك في هذه الأيام. هذا الجمال أمامك يستحق أن تقدّره لذاته. كل جمال هو شيء خاص. وكل علاقة به يجب أن تكون خاصة لا قبل لها ولا بعد. ابدأ علاقتك بهذه المناظر منها وبها.
- لو كان الأمر بهذه السهولة.
- طالما تصرّ أن تجعل الكفرون المرجع، لن تتمكن أن تبدأ علاقات جديدة وترى نوعاً آخر من الجمال. ولو كنتَ منصفاً ستقودك مقارنتك إلى إعادة النظر. تأمل هذا المنظر، ليس في الكفرون مثل هذا الجمال.
- لكل جماله الخاص.
- اعترفْ بالحقيقة. تحررْ من الذاتية وهذه الرواسب.
- الذاتية لا يمكن. أما ما تسمينه رواسب فأسميه جذوراً. لذلك أحببتُ شجرة الصفصاف. ليس لأنها تبكي وتهبط دموعها إلى النهر فتحدث دوائر تتلاشى في بعضها. وليس فقط لأن رؤوس أغصانها المتدلية ترسم أعيناً متتابعة على سطح الماء كلما حرّكها الهواء. أحبّ شجرة الصفصاف لأنها تنكفئ على ذاتها وجذورها. كلما كبرتُ في العمر، انحنتْ أغصاني نحو جذوري.
- ستنتهي سلفياً.
- لا سمح الله. هناك انتماء جامد وانتماء متحرك. لا أستطيع أن أتحرر من الصفصاف الذي شرّش في نفسي.

ـ والذاتية ! أنت تعتز بجمال الكفرون. الأميركي يعتز بجمال أميركا.

ـ له مطلق الحق. وهو على حق.

ـ جاؤوا إلى العالم الجديد من مختلف أطراف العالم القديم وبنوا مجتمعاً متقدماً. بنوا مجتمعاً جديداً لأنهم بدأوا حياة جديدة غير مثقلين بالتراث والمؤسسات خصوصاً ذلك التراث الذي ترسّخ في عهود الجهل والفقر والاضطهاد. اقتلعوا أنفسهم من مجتمعاتهم السابقة ولم يلتفتوا إلى الوراء، فأصبح بإمكانهم أن يبدأوا أنقياء. طبعاً لم يتحرروا من كل موروثاتهم. جاؤوا جياعاً وولّد الوضع الجديد جشعاً في نفوسهم. توفرت أمامهم فرص لا تحصى فعمّت الانتهازية. هم إحدى ظواهر بدايات الاستيطان الاستعماري. ما فعلوه بالهنود ثم السود عار تاريخي.

ـ وهم في هذه الأيام يُكملون التمدد الأوروبي لقهر العالم والسيطرة عليه. أنتِ على حق أن هذه المسافات الشاسعة من الأرض الخصبة ولّدت جشعاً إضافياً. التوجه غرباً ريادة ولكنه أيضاً غزو بالبنادق دون سلطة ووازع. رسموا حدوداً لأرض بلا حدود وقالوا هذه ملكي الخاص وكتبوا (ممنوع الدخول). قتلوا الهنود مرتين. مرة برصاص بنادقهم، ومرة برسم صورة سلبية لهم كي يسوّغوا القتل. رسموا الضحية قاتلاً معتدياً متوحشاً متخلفاً، ورسموا القاتل المعتدي ريادياً طموحاً بريئاً متقدماً متديناً. لا يزال الهندي مطارداً محاصراً حتى الانقراض. وعندما كوّنوا مجتمعاً قوياً توجّهوا إلى بقية العالم تماماً كما فعلوا في توجههم غرباً في أميركا. في هذه الأيام يقتلون العالم الثالث مرتين كل برهة. علاقاتهم بأرضهم والهنود والسود والعالم الثالث وحتى الفضاء هي علاقة قهر وسيطرة ومطاردة وحصار واستغلال. نحن الآن في أوج هذه المرحلة. الصورة التي رسموها للهنود ثم للسود يرسمونها الآن للعالم الثالث. لذلك يصنف الرئيس الأميركي الحالي الدائم الابتسام العَالَم إلى عَالَم بربري وعَالَم متحضر فيسوّغ الاعتداء والقتل. من مفارقات الزمن أنه يعتبر نفسه متحضراً.

ـ تبسّط الأمور كثيراً.

ـ ربما. ولكن كلما حاولتُ أن أعيد النظر بقناعاتي، أجد مزيداً من الأدلة على صحتها.

ـ افتحْ قلبك لجميع أنواع الأدلة.

ـ صدّقيني، أحاول.

ـ تحاول، ولكنّكَ لا تستطيع.

ـ الشيء الذي لا أستطيع أن أتجاهله ما أراه من علاقة بين الهوس الأميركي بالـ «دايت»

والجوع في العالم الثالث. أبوكِ، رحمه الله، رأى بوضوح أن جميع أنهر العالم تصبّ في المحيط الأميركي. رأى ذلك بحدسه الخاص البسيط.

- تعرف أنه كان يقول ذلك باعتزاز.
- صحيح، إنما المهم الحقيقة التي تبيّنتْ له بوضوح. موقفه هذا شيء آخر.
- موقفه مهم أيضاً. رأى أميركا بلاد الفرَص فقاسى كثيراً في سبيل أن يجلب العائلة إليها.
- أيضاً صحيح، ولكن هل يمكن أن نتجاهل هذه العلاقة الواضحة بين التخمة في أميركا والجوع في العالم الثالث ؟ أميركا تسيطر على اقتصاد العالم. تستغل موارده وطاقاته مدفوعة بجشع لا حدّ له.
- ما تتكلم عنه هو علاقة القوي بالضعيف في كل مكان وزمان، بما في ذلك العالم الثالث. الطبقات الحاكمة هناك أكثر جشعاً وتخمة.
- تماماً. والمتخَم هناك متحالف مع المُتخَم هنا.
- الضعفاء مشتتون. أقسى الحروب وأكثرها عبثاً تلك التي يمارسها الضعفاء فيما بينهم وضد بعضهم بعضاً. يبقى السؤال : لماذا تعيش هنا وليس هناك ؟
- تعرفين أنني أكثر قسوة في نقد بلادي.
- لماذا هذا الحوار في هذا الوقت ؟ لنتمتع بهذا الجمال ولننس قسوة العالم. أكيد ليس عندك مواعظ أخرى ؟ صرّح بها الآن. لا أريد أن نعود إلى الموضوع بعد دقائق. فرّغْ جعبتك. لماذا تهرّبتَ من السؤال ؟

ضحكتُ بحرج. فكرت أنني حقاً تهربتَ من السؤال. ولكنني كنت مشغولاً بفكرة أردتُ أن أحدّثها عنها لمدة فاستأنفتُ متردداً : أعتذر، سأغير الموضوع. إنما تخطر لي فكرة هذه الأيام وأريد رأيك.

- فكرة واحدة.
- فكرة واحدة، أعدكِ.
- هاتْ، خلّصنا من ثقالة الدم.

توقفتُ أستجمع أفكاري وقلت متردداً أيضاً : أفكر منذ مدّة أن في المجتمع الأمريكي نزعة قوية للتأكيد على أهمية الكَيْف أو «البَسط» ولكنه «كَيْف» دون سعادة. إنه مجتمع «كَيْف» دون سعادة. وهو مجتمع كَيْف بمعنى آخر لأن الأميركي يسأل دائماً كيف يفعل شيئاً ما وليس لماذا يفعله. تنتهي كلمة «لماذا» في الطفولة وتحل محلها كلمة «كَيْف». كيف

تصبح غنياً ؟ كيف تنجح ؟ كيف تتمتع بالجنس ؟ كيف تغازل زوجتك ؟ كيف تكون سعيداً ؟ كيف تغيّر زيت السيارة ؟

- انتهيت من عرض فكرتك ؟
- انتهيتُ ولوقت طويل.
- نشكر الله. هل تسأل أنتَ «لماذا» دائماً ؟ هل يسأل العرب لماذا ؟ كم هي المكبوتات والمحرمات العربية ؟
- عديدة لا تحصى.

نعود نتأمل انحدارات الجبال وتمازج ألوان أوراق الشجر والسهول الخضراء والغيوم البيضاء في أقصى الغرب تتخذ أشكالاً مثيرة. اضطربتُ فقد تَذكّرتُ الانسحاق تحت أثقال الماضي، تذكرت الأمر والنهي فأحسست بالرعب رغم المسافات.

أقول لحبيبتي : مي صغري كنا نجلس أمام بيت جدي في رأس التلة ونتأمل أشكال الغيوم في الغرب ونتساءل فيما بيننا ماذا نرى فيها. يقول جدي أرى أسداً يتصارع مع نمر، وتقول جدتي أرى فتاة تملأ جرة. وأقول أرى حصاناً جموحاً رمى فارسه. وتقول عمتي فهيدة أرى حقلاً من القطن، وهكذا. وعندما تتخذ الغيوم أشكالاً جديدة نعود نقرأ أبجديتها. الآن أدرك أننا كنا نُسقط أنفسنا على الغيوم ونراها بعيون داخلية لم نكن نعرف أننا نملكها. لنقرأ غيوم أميركا. ماذا ترين فيها ؟

- أرى غيمة وحيدة مستوحدة.
- أرى خريطة متحولة تظهر تداخل البر والبحر.
- وأرى فتاة يطاردها شابان.
- أين ؟
- هناك في ظل الغيمة السوداء.
- أرى امرأة عارية لها ثلاثة أثداء.
- أرى دباً أبيض.
- وأنا أرى دبّاً أسود. أعتقد أنها ستمطر. ما رأيك أن نعود ؟

نبحث في طريق عودتنا عن الغزلان والأرانب و«التشبمنك» ونتدارك الأمكنة الكثيفة التي يمكن أن نواجه بها دباً شرساً. ورافق ذلك بحث داخلي خاص فسألتني حبيبتي : تريد أن تسمع حلمي الأخير ؟ منذ الصباح وأنا أحاول أن أتذكره.

- انتقلنا من قراءة الغيوم إلى قراءة الأحلام ؟
- قراءة الغيوم هي التي ذكّرتني بها. أحلامي دائماً شديدة الغموض. أكثر غموضاً من الغيوم. ثم إنني أنساها بسرعة.
- أحلامكِ دائماً ممتعة.
- ومزعجة أيضاً. حلمتُ ليلة أمس أنني أقمتُ «كونسرت» في قاعة كبيرة. عرفت أنني غير مستعدة ولا أعرف حتى كلمات الأغنية. فكّرتُ أن أخترع كلماتي الخاصة وأن أخدع الحضور كي أجمع مالاً. طلبتُ إلى عازفة البيانو أن تعزف، ورحتُ أغني : كان بإمكاني أن أرقص طيلة الليل. وجدت صوتي أفضل مما توقعت. ولكنني لم أجد الكلمات المناسبة فبدأ الحضور يتركون القاعة، ووجدت نفسي وحيدة. ومع ذلك تابعت الغناء فبدأتُ أجد الكلمات، وعجبت أنها كانت جميلة معبّرة، وتحسّن صوتي.
- الآخرون رقابة. هناك أقنعة لأن هناك آخرين. حلم هائل.

أغرقنا في تفسير حلمها. بين الجد والمزاح اتهمتُها بأنها تحب المال، وأنها تسعى لإرضاء الآخرين من ناحية، وأنها تحب الوحدة والتحرر من ناحية أخرى. وقبل أن تدافع عن نفسها قلتُ : لأخبرك إذن حلمي الأخير :
- حلمتَ أنك تطير ؟
- لا. لا. ليس هذه المرة. حلمتُ أمس أنني تركت عملي المضني.

وقاطعتني : عملك مضن ؟ ماذا تقول عن عملي ؟
- بلا مقاطعة. من دون شيء أنسى أحلامي. حلمتُ أنني تركت عملي وسبحت إلى جزيرة نائية أبحث فيها عن أحصنة برية تجوب العالم الرحب بحرية تامة. وكنت أخاف فيما أسبح أن يعترضني قرش ويقضم ساقي. طال الخوف بقدر ما طالت السباحة. اعترضتني أمواج صاخبة فوجدتُ نفسي أبتعد عن الجزيرة بدل أن أقترب منها. ولكنني عدت أسبح. القرش يقترب. أغمض عيني وأستسلم منتظراً أن يلتهمني القرش. لا يصل. لا يلتهمني. أعجب لذلك. أفتح عيني وألتفت إلى الوراء. أعجب أنه اختفى. أتابع السباحة إلى الجزيرة. أتسلق تلة وأشرف على سهول مترامية الأطراف. وفجأة أشاهد قطيعاً من الأحصنة البرية يسرح في فلاة واسعة. راقبتها تجمح في مختلف الاتجاهات دون هدف، تتناكح دون خجل، تتسابق دونما رغبة في الربح أو الخسارة. راقبتها لزمن طويل ففرحتُ فرحاً جارفاً. لا أدري كيف انتهى الحلم.

ـ يجب أن تكون وجدتَ فيه حياتك الضائعة.

ـ أظن أنني أدركت في الحلم أنني مدجَّن... فقد رحتُ أتذكر المهر الذي كنته في الكفرون حين أركض في الجداول والسواقي فتنرش المياه عن يميني وشمالي وتبلل وجهي وشعري.

ـ يجب أن يكون للحلم علاقة بالأخبار التي سمعناها قبل أمس في التلفزيون عن مطاردة الأحصنة البرية في ولاية «وايومينغ» والقبض عليها وتسليمها لرعاة البقر في سبيل تدجينها أو بيعها للذبح.

ـ يجب أن يكون هناك علاقة. أزعجتني مطاردتها بالطائرة المروحية حتى ترهق فيقبضون عليها ويسلمونها غنيمة لرعاة الأبقار أحفاد رواد الغرب.

ـ صمت. لم نجد حبيبتي وأنا ما نقوله. ظننتُ أن للصمت علاقة بهذا الحلم ـ الكابوس، الذي رويته. لذلك وجدت نفسي أحاول تغيير الجو فقلت : لأخبركِ آخر نكتة سمعتها.

ـ هل عندك نكتة لم تخبرني إياها مرات من قبل ؟

ـ صحيح أخبرتك إياها. تذكرتُ الآن أنك لم تضحكي. لأخبرك إذن إحدى مهازل حياتي.

ـ هذا شيء مضحك لابد. هات.

ودون تردد قلتُ : في صغري، ربما في الخامسة أو السادسة من عمري، أرسلني والدي إلى دكان عبد الله نصار لأشتري له رطل شعير للبغل. في طريق عودتي زلقتُ فانكب الشعير بين الحصى والتراب. جمعتُ بعضها وطممتُ ما تبقى في التراب خوفاً، وعدتُ إلى البيت أتلفّتُ في جميع الاتجاهات. ولما تناولها أبي فوجئ وراح يروزها. ودون أن يسألني شيئاً حمل الكيس وتوجه غاضباً نحو دكان عبد الله فاختفيتُ. ولما عدتُ متأخراً وَجِلاً، عرفت أن أبي عاتب عبد الله فاستغرب ولكنه اعتذر ووزن له رطلاً وزاد عليه حفنة، كحبة مسك. وسألتني حبيبتي متهمة : لم تخبر والدك بالحقيقة ؟

وأردت أن أنكر ولكنني وجدت نفسي أقول : لا.

ـ جبان.

ـ ومدجَّن إذا أردتِ. لذلك لم أنس هذه الحادثة. سترافقني إلى الأبد. نادراً ما أستطيع أن أنسى ذنوبي. هل تذكرين ذنوبك ؟

ـ لا أذكر شيئاً منها. يجب أن أكون امرأة بلا ذنوب.

ـ تزوجتَ امرأة نقية.

وضحكتْ ضحكة قوية ومتواصلة. خطر لي أن أسألها عن سبب ضحكها هذا، وربما عن بعض ذنوبها، ولكنني لم أجرؤ. تابعنا السير لوقت دون أن يقول أحدنا شيئاً للآخر. أفكر بأمور عديدة، ولابد أن تكون هي أيضاً تفكر بأمور عديدة. تصطخب في ذهني تداعيات لا أعرف كيف ولماذا تتوالد، وما علاقتها ببعضها البعض. صور من الماضي حسبتُ أنني نسيتها كلياً تستيقظ في نفسي كما تشقّ النباتات قشرة الأرض في يوم مشمس بعد مطر غزير.

وطالما نتكلم عن الذنوب أذكر أنني أنزلتُ أختي عنوة من الأرجوحة التي نصبتْها أمي لنا داخل البيت، فراحت تبكي. ولكنها كفّتْ فجأة عن البكاء عندما أنزلتْ أمي طنجرة شوربة العدس عن النار ووضعتها على الأرض لتنصرف إلى عمل آخر. جلستْ أختي فوق الطنجرة تراقبها والهبلة لا تزال ترتفع منها. لا أدري كيف فقدتُ سيطرتي على الأرجوحة، فاصطدمتُ بأختي فوقعتْ وغطستْ يدها بشوربة العدس الساخنة.

تراكضتْ أمي ومسّدتْ الشوربة عن ذراعها، فانسلخ جلدها. حَمَلَتْها خارجاً تبكي وتولول طالبة المساعدة. لا أزال أرى جلد أختي في كف أمي حتى الآن، رغم أن الحرق لم يترك أثراً.

نراقب ألوان الأشجار. نلتقط بعضها وهي تتساقط مثل ريش طائر الحوم بتردد متموجة مع النسيم. أوراق صفراء، حمراء،نبيذية، عنابية، رملية، قرمزية، ذهبية. تهبط مثل الموت في عالم المتعبين. أوراق مشعشعة متوهجة تقاوم السقوط فتترنح في الهواء إلى أن تلامس التراب برفق. هل يمكن أن يكون موت الإنسان مثل موت أوراق الشجر في الخريف ؟

مخول وأسْكِس

كأوراق الخريف وريش طائر الحوم، قاوم أبي السقوط. منذ تلك البرهة وأنا ملاحق بسقوطه. وكلما سمعتُ ارتطام جسده، ركّزتُ تفكيري محاولاً تبيان ملامحه.

كان وجهه نحيلاً وبلون العسل المحروق. أتبين خاصة حدة تقاطيع محياه ونظراته وعينيه العميقتين. وربما كانت قامته الخيزرانية أقرب إلى الطول منها إلى الاعتدال. أنا أيضاً أذكر أنه كان يلبس سروالاً وكوفية وعقالاً وجزمة وحزاماً عريضاً، ويجيد الدبكة فيقف في الطليعة بعد أن يربط محرمته ويجدلها ويهزها فتدور بسرعة هائلة مثل مروحة أو سيف أو عصاه. وقد ارتسمتْ الدبكة في ذهني منذ تلك الأيام الأولى رقصةً شعبية، وتعاوناً فاليد في اليد والكتف إلى الكتف، ومبارزةً وتحدياً وتفرداً فهناك حرية الحركة والتنافس في إطار الانسجام الكلي. شكراً أنك رسّختَ هذا الانطباع الأول في ذهني يا زكي ناصيف.

وسمعتُ كثيراً عن خصامات خاضها والدي. تقول أمي وآخرون من الضيعة والقرى المجاورة أنه كان جريئاً لا يهاب المخاطر. ويطمئنني الجميع أنه لم يبدأ المعارك التي خاضها بل كان يحب الناس ويحبونه. شخصياً أكاد أذكر معركتين شهدتهما. في أحد الأعياد كان على وشك أن يجلس إلى طاولة الطعام مع ضيف عزيز.عندما جاءه مَنْ أخبره بلهفة أن معركة نشبت في الجبل بين أخيه جميل وغريب البربر الذي حشد له بعض أقربائه. رأيتُ أبي يضع خنجره تحت حزامه العريض ويحمل دبوسه ويمضي. تبعته إلى ساحة المعركة ووقفت أراقب من بعيد (منذ ذلك الحين وأنا أتساءل إذا كنتُ دائماً أراقب المعارك من بعيد متحججاً بأنني أتعاطى سلاح الكلمة مع أنني في الواقع اضطررتُ لخوض بعضها وانتهتْ لصالحي). لم يتوجه أبي في تلك المعركة إلى غريب بل إلى أشد أقربائه بأساً، غير أن الناس تدخلوا ومنعوه من الاقتراب منه. أذكر يومها أن ابنته (وكانت صديقة لي) اقتربت مني

وقالت بعتب، «أبوك يريد أن يقتل أبي». ولأنها كانت جميلة لم أسألها لماذا حشد أبوها لفريب البربر وضرب عمي.

أما المعركة الثانية التي أذكرها جيداً كما أذكر الأولى فحصلت أيضاً بسبب اعتداء على عمي جودت. لا أدري السبب. ما أعيه أن جدي جاء إلى بيتنا غاضباً وصرخ بأبي، «أنا ما عندي أولاد. ما عاد عندي أولاد. الناس تتعدى علينا وما بتسقط من رأسهم شعرة واحدة !».

وما أن فهم أبي ما حدث حتى تسلح بخنجره ودبوسه وخرج إلى الساحة. في هذه المرة لم يتمكن الناس من صده فوصل إلى ثلاثة من المعتدين ورماهم أرضاً. وكان ذلك كافياً لتنتهي المعركة وتجري المصالحة، فقد وصل جدي وتظاهر بالغضب على أولاده آمراً إياهم بالعودة ألى البيت.

وكما كان له حضوره في الدبكة والمعارك، كان له حضوره بالغناء وإقامة الصداقات العديدة داخل القرية وخارجها. أعرف أنني لم أذهب إلى قرية من هذه القرى إلاّ وأكرمني الناس وأحبوني بسبب سمعة والدي الطيبة. وطالما أخبروني أنه بمجرد طلته كان يعلن حضوره باستمرار فتهابه وتحترمه وتحبه في آن.

ومما أذكر بوضوح كلي أنه حالما يعود من عمله كان يقدّم لنا شيئاً مما حمله خصيصاً. لم يعد يوماً فارغ اليدين. يربط البغل إلى شجرة الزنزلخت وينزع كوفيته وعقاله ويحلق ذقنه ويصب كأس عرق فتُحضر له والدتي مازة كانت دائماً تشمل رأس شنكليش ممعوساً بالزيت ورأس بصل ورغيف تنور بلون وجهه. في الصيف كانت المازة تشمل دائماً خياراً وبندورة. قالت لي أمي إنها أخطأت مرة وقدمت له رغيفاً «خلطاً»، فمزّقه وأطعمه للبغل سائلاً «من أين جلبتِ هذا الرغيف ؟» فشرحت أن جارتنا الست زهية استعارت رغيفاً قمحاً وأعادته «خِلطاً»، ولم يكن لها عين أن ترفضه. الست زهية كانت سيدة عائلة وجيهة تملك الطاحون، وكانت تنصح أمي بالاقتصاد. سمعها أبي مرة تقدم لها مثل هذه النصيحة فقال «يا شبينتي، شو فيها هالحياة، بكرا منموت». ربما كان وراء هذا التوتر المبطن في العلاقات رغبة عند الست زهية أن نظل حيث نحن على صعيد الرمز، وإصرار من قبل والدي أن يؤكد على كرامته وحقه بتجاوز أوضاعه. وعندما كانت تظهر آثار التوتر واضحة، كانت تجري توا محاولة من قبل الطرفين لطمسه محافظة على روابط ومصالح متبادلة. يقرن والدي رفضه لنصائحها بالتوجه إليها بتعبير «يا شبينتي»، وتشرح الست زهية أنها تريد لنا الخير فتقدم النصائح «من قلبها علينا» وتنتهي الأمور عند ذلك الحد.

عمل مكارياً ينقل الكثير من البضائع والحوائج والحجارة بين قرى المنطقة. وكما أنتقلُ أنا في هذه الأيام بين واشنطن ونيويورك وبوسطن وديترويت وشيكاغو وسان فرانسيسكو وبورتلند وأوستن وبين أميركا وأوروبا والمغرب والمشرق العربيين والجنوب والشمال، كان والدي ينتقل بين الكفرون والمشتى وصافيتا والدريكيش ومرمريتا والمشتاية وبرشين ومحرده والسقيلبية. وقد غرزت في وعيي قرى أخرى طالما سمعته يرددها مثل عيون الوادي والجويخات ورباح و عقرب ومصياف من ناحية، وبدادا وعين الجرن وحابا واليازدية وحب نمرة وغيرها من ناحية أخرى. وأذكر أيضاً أنه كان يسافر إلى عكار ويغني «جبل عكار يا جبل الثلوجي...» فيما يحسّ البغل. بعض عمومتي عملوا مكاريه أيضاً وأولادهم الآن يقودون سيارات « بيك ـ آب» ينقلون فيها البضائع بين القرى نفسها ولكنهم أضافوا إليها حمص وحماه وطرابلس وطرطوس.

أقول لحبيبتي : كان صوته جميلاً.

ـ مَنْ ؟

ـ آه، كنت أفكر بوالدي.

ـ تذكر صوته ؟

ـ أظن. صوت أخي شبيه بصوته. إنما لا أزال أذكر تلك الليلة بوضوح كلي. في مساءٍ ممطر بارد جاء مخول يسهر عندنا. مَنْ لا يعرف مخول في تلك الأيام ؟ كان كبير الرأس بشكل غير عادي، بشعاً، قصيراً مستديراً، فقيراً، وحيداً، غريباً، منبوذاً. عمل خادماً من الدرجة الثانية أو الثالثة عند بيت عرّابي فائق. لم نكن كأطفال نعرف أو نريد أن نعرف عنه أكثر من ذلك. لا ندري من أين جاء، ومَنْ عائلته، وإن سمعنا بعضهم يقول إنه قريب لأم يوسف (يوسف بطل الضيعة في رفع الجرن ما غيره). لم يكن له أب، ولا أخ ولا أخت، وطبعاً لا زوجة ولا أولاد. من ترضى أن تتزوج مخول ؟ غصن يابس مقطوع من شجرة لا نعرف أين كان موقعها. ومن كان هذا وضعه لابد أن يصبح في الضيعة هدفاً للسخرية والمطاردة. وهذا تماماً ما كنا نفعله : نطارده في أزقة الضيعة، نناديه « مخول بو راس» أو «مخول بو مخطة» ونهرب حين يطاردنا بالحجارة. كنا أيضاً نطارد الهررة والكلاب خاصة عندما تتجامع. تعرفين أن الكلاب حين تتجامع لا تستطيع الانفصال بسهولة.

ـ لا، لا أعرف. ولكن لماذا كل هذه الشراسة ؟

ـ لا أدري. طالما تساءلتُ نفسي. في زيارتي الأخيرة لدمشق كنت أتجوّل في سوق الحميدية أبحث لكِ عن مرآة مُصدَّفة قديمة، فشاهدتُ الأطفال يطاردون امرأة عمياء وينادونها بسخرية «حليمة، يا حليمة» فسألتُ أحد الباعة لماذا يعذّبون هذه المرأة المسكينة، فقال لي كأنما يتهمني «نحن مجتمع بلا تهذيب». تعجبتُ لجرأته وقسوته في الحكم.

وطالما شعرتُ بالذنب كيف كنا نصطاد العصافير حتى في أعشاشها. وهذه هي الأعمال التي أكبتها وأجدها الآن متناقضة مع شعوري تجاه طائر الحوم، فأخجل أن أصرّح بها. ولكن هذا ما كنا نفعله. من أين تأتي هذه الشراسة ؟ لن أنسى الحمامات التي ذبحها حسن. أكلتُ مرة حماماً مشوياً في الأسكندرية. أحاسب نفسي أحياناً، وعندما أقسو عليها أجدني أسوّغ ذلك فأقول إن جميع الناس يأكلون لحوم الحيوانات. أين حدود الشراسة وحدود الضروريات ؟ أين الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام، وبين الإغراق في العاطفية وبين العقلانية الباردة التي تسوّغ أي عمل ؟ لا أعرف. ويساعدني هذا التساؤل على التصالح مع نفسي ولكنني لن أتمكن أن أنسى، وأن أتغلب على الشعور بالذنب عميقاً في الصميم.

عندما جاء مخول يسهر عندنا، تساءلتُ لأول مرة لماذا نطارد هذا المسكين بالحجارة هو والكلاب والهررة والعصافير والسنجاب. أول ما لفت نظري حين حضرت إلى أميركا هذه العلاقة الإيجابية بين الناس والسنجاب، حتى إن طبيعته تختلف عن طبيعته عندنا. أذكر من طفولتي أن السنجاب عندنا شديد الحذر، لا يقترب من الناس ويسكن أعالي أشجار السنديان والجوز الباسقة الكثيفة بعيداً عن الأماكن المألوفة.

المهم أن مخول جاء يزورنا تلك الليلة الباردة الممطرة، ففوجئت وخفت أنه جاء يشكوني لوالدي. لم أنس بعد «القَتْلَة» التي أطعمني إياها أبي عندما سرقتُ باقة من البصل الأخضر من جنينة نجمة الصبح التابعة لفرح روميه. لم يكن من عادتي أن أجلب غنائم السرقة إلى البيت، فأنا أعرف النتائج. ولكنني هذه المرة اعتبرت أن الأمر سيكون مختلفاً لأنني توقعت أن يكون عشاؤنا «مجدرة» والحرام هو أن نأكل «مجدرة» بلا بصل. رغم ذلك أكلت «قَتْلَة» ونمتُ بلا عشاء. تداركت الأمر فجلست إلى جانب مخول قرب الموقد. ولم يذكر شيئاً عن مطاردته، فشعرت بالذنب وحاولت أن أظهر اهتماماً زائداً به. خطر لي أنني كنتُ في الواقع أقل الأولاد حماسة في مطاردته وتعذيبه. وعجبتُ أن أبي أظهر له مثل ذلك الاحترام. قدّم له كأس عرق وقشّر له بعض الدوّام (وهو ثمر شجر السنديان الذي كان يعتبر بمثابة كستناء الضيعة في تلك الأيام) الذي كنا نشويه على النار. ومما أذكره بوضوح كلي أن أبي

أخذ يغني العتابا، فراح مخول يبكي بصمت. استرسل أبي بـالغنـاء، فـاسترسل مخول بـالبكـاء. احتفظت في نفسي بصورة لـدمـوع مخـول تنحـدر متصلـة إلى شـاربيـه ولحيتـه القصيرة وقـد عكست بريق نار الموقد المترجرج والنار المتـأججـة في داخلـه تحت طبقـة كثيفـة من رمـاد حياته. منذ تلك اللحظة تأكدتُ أن صوت أبي كـان جميلاً وإلاّ كيف تمكن أن يخترق جلـد مخول وعظامه، ويغور في أعماقه فيثير فيه تلك الأحاسيس الدفينة. تـأكـدت أيضـاً أن مخول ليس إنساناً بلا أحاسيس. يجب أن يكون قد كبت آلاف النزوات والعذابات والإهانات اليوميـة ودفنها تحت ركامـات النسيـان في محـاولـة دائبـة للانسجـام مع واقعـه. فجـأة يتوقف الكبت وتنهار سدود النسيان (أي طبيب نفسي يستطيع أن يفعل ما تفعله العتـابـا) فتتـدفق أحـاسيسـه مثل نبع ينفجر من بـاطن الأرض. في تلـك البرهـة فهمتً لمـاذا نسمي الينـابيع الصغيرة عيون الماء.

شعرتً بالذنب ولا أزال. لن يطارد أحد مخول من الآن فصاعداً دون أن أقف إلى جانبـه وأطـارد مطـارديـه. وضعتً نقّيفتي (وكـانت أفضل سلاحي في ذلـك الوقت) تحت تصرفـه. لم يعش مخول طويلاً. وعندما استبدلتً نقّيفتي بالكلمة. كانت وما تزال السلاح الذي أجيده.

- تذكرين حادثة «أسْكِس» ذلك الأسود الأميركي الذي قتل سبعـة من رجـال الشرطـة قبل أن يقتلوه.

سألتَ حبيبتي، فأجابتْ مستغربة هذه الالتفاتة السريعة في تداعياتي : أذكر، ولكن مـا علاقته بمخول ؟

- يبدو لي أن هناك علاقة وثيقة. كانت أوضاعهمـا واحـدة. كلاهمـا منبوذ مطـارد ومهـدّد في صميم رجولته. ولكن أسْكِس تمرد في الوقت الذي كـان مخول يلجـأ إلى البكـاء. صنعت لـه نقّيفة ولكنه رفضها.
- ولكن هجوم «اسكس» على الشرطة وقتل سبعة منهم عبث.
- قلتِ هجوم «اسكس» ولم تقولي دفاعه. الأفلام الأمريكية دائمـاً تصور الهنود ينصبون كمينـاً ويهاجمون العائلات البريئة التي تضم عـادة رجلاً هرمـاً وامرأة جميلـة وطفلاً. إسرائيل تسمي جيشها جيش الدفاع. احتل الضفة والجولان وغزة وظل جيش دفـاع. وصل إلى بيروت وظل جيش دفاع. هدم البيوت فوق العائلات وظل مدافعاً.
- ولكن قتل «اسكس» لسبعة من رجال الشرطة عنف عبثي.
- صحيح، إنما أقبل تفسير أمه : طاردته الشرطة لأسباب تافهـة. أدرك أنهم أرادوا قتل رجولتـه

وعنفوانه فرفض أن يخضع. ظل يهرب منهم حتى وجد نفسه مضطراً أن يواجههم. قتل سبعة قبل أن تثقب جسده عدة رصاصات.

- أذكر الآن الحادثة بوضوح. أظن أن الرئيس نيكسون أعلن في ذلك الحين أن عمل «اسكس» الإجرامي خرق للقانون والنظام.

- صحيح. لكن هل يحق لبطل عملية «وترغيت» أن يتكلم عن القانون والنظام. هذه القدرة الهائلة على النفاق، وبكل تهذيب وأناقة. بكل أناقة وخشوع استدعى المسيح والله ودعا الناس للصلاة من أجل السلم في ليلة عيد الميلاد ثم أرسل الطائرات لتقتل المستشفيات والمدارس في فييتنام. كل ما في الأمر أنه أصدر أمراً، وكل ما احتاج إليه الطّيارون الأبطال أن ضغطوا زرّاً فانهارت الصّورايخ ونالوا أوسمة زيّنوا بها صدورهم الواسعة. قتل من نوع جديد. مجرد الضغط على زر دون مواجهة الضحية. لم تتلطخ بدلات نيكسون وطياريه الأنيقة ببقع الدم. وأنتَ أيها الطيار القذر الذي رمى القنبلة الذرية على هيروشيما، أزعجني جداً تصريحك أخيراً بأنك لا تشعر بالذنب وبأنك مستعد أن تكرر جريمتك إذا طلبتْ منك حكومتك ذلك.

- لا أستطيع أن أنسى مشهد تلك المرأة الفيتنامية الشابة. نُسِفَ البيت الذي وُلِدَتْ فيه وقُتِل زوجها وطفلها. دون مقدمات وبلمحة خاطفة انتهى كل ما تملكه. تمشي فوق أنقاض بيتها ضائعة، مأخوذة، نائحة، مجنونة.

- يتساوى بهذا المشهد مشهد تلك المرأة الأميركية الشابة التي قُتِل زوجها في فييتنام. عندما سألها مراسل التلفزيون كيف تشعر، أجابت بغضب : لا أستطيع أن أغفر لهذا البلد أنه أرسل أفضل شبابنا للموت في بلاد نائية. ما هو شأننا ؟ كَتَبَ لي زوجي قبل أن يموت أنه لا يحترم حكام فييتنام الجنوبية. شعر أنه يدافع عن اللصوص ويحارب المحررين المثاليين. درستُ التاريخ منذ الطفولة وكوّنتُ فكرة ناصعة عن نظامنا. لقد تحطّمتْ الصورة ولا يهمني أن أجمع أجزاءها بتاتاً.

- بموت زوجها أدركتْ الحقيقة كما أدركها بولس في طريقه إلى دمشق فلم يعد بإمكانها حتى أن تسوّغ القتل.

- أسوأ تسويغ سمعته في حياتي قول مسؤول أميركي إن إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما كان عملاً إنسانياً لأنه أوقف الحرب. وأفظع من ذلك تصريح الطيار الذي ألقى القنبلة. مثله الأدميرال زامولت الذي قاد القوات البحرية الأميركية في ڤييتنام. تذكرين أن ابنته كانت

تلميذتي ؛ لطيفة حقاً. هو الذي أصدر أمراً برش الغابات بمادة «ايجنت اورنج» السامة. ومن عجيب الصدف أن ابنه كان يحارب على الأرض تحت هذا الضباب القاتل. الإبن الآن مصاب بالسرطان وابن الإبن وُلد معاقاً عقلياً بسبب التعرض لهذه المادة. ويعترف الأدميرال أنه مسؤول، على الأقل بشكل غير مباشر. رغم ذلك يؤكد أنه لا يشعر بالذنب وأنه مستعد أن يصدر الأمر في الوقت الحاضر إذا اقتضت الحاجة. حوّلوا الطاعة للدولة إلى موقف أخلاقي.

وأرادتْ حبيبتي أن تغير الموضوع حقاً. أعتقد أنها على حق. لماذا تطاردنا هذه الصور الكالحة في وسط سيمفونية الألوان ؟ أتساءل ولكنني أجد نفسي أتابع : الحكاية ذاتها تتكرر. حل ريغان محل نيكسون. أعطوا الضوء الأخضر لإسرائيل أن تغزو لبنان.

ـ ذلك الدب الآخر ! ما اسمه وزير الخارجية ؟ الكسندر... الكسندر هيغ.

ـ والدب الذي خلفه. مَنْ سيذكر في المستقبل جورج شولتز ؟ عندما أشاهده على شاشة التلفزيون لا أستغرب أن يطلع له قرون في تلك البرهة بالذات لكثرة حقده.

ـ وذلك المبتسم الأبدي صنّف العالم بلغة القرون الوسطى إلى مجتمعات بربرية ومجتمعات متحضرة.

ـ أيضاً ليسوّغ القتل.

أيضاً أفشل في محاولتي لتغيير الموضوع. الصور الكالحة تطاردني دون رأفة بنفسي التي تريد المغفرة والمصالحة والتمتع بالمحبة والجمال والفن، فأتابع حديثنا معتذراً : أميركا في علاقاتها بالعالم مثل ظاهرة الاضطرابات الجوية التي تسمى بالإسبانية «النينو» والتي تسبّب الفيضانات والجفاف. حيث لا حاجة للمطر تسقط أمطارها الغزيرة حتى تجرف كل شيء بطريقها، وحيث تكثر الحاجة للمطر تحجب نفسها كليا حتى تتشقق الأرض من الجفاف.

ـ الكلمة في الإسبانية تعني الطفل ولا أدري لماذا أعطوها هذا الاسم.

ـ وأنا أيضاً لا أدري.

ونتابع تجولنا بصمت في ممرات متشعبة علّنا نتحرر من الإحساس بالمطاردة.

اغْتِيَالُ الأَزْهَار البَرِّية

أتذكر رحلة إلى جنوب لبنـان في يوم ربيعي جميل. انسحرنـا بحقول الأزهـار البريـة المترامية أبعد من حدود النظر. في مثل تلـك الأيـام الربيعيـة بالـذات غزت إسرائيل الحقول نفسها فعدتُ إلى الصور التي التقطناهـا. تصوّرتُ دبـابـات جيش الـدفـاع الإسرائيلي تمر فوق الأزهار البريـة. أرجو ألا يكون أهلـك قـد تعرضوا لأي خطر يـا جورج. وأنت يـا حسن أين أرضك ؟ ترى ما وضع العديسة وعين الماء التي شربنا منها حتى الارتواء ؟

أسألك يا جاري مايك اندرسون مَن المـدافع ومَنِ المعتـدي. مَن القـاتل ومَن الضحيـة ؟ مَنِ المتحضر ومَنِ البربري ؟ مَنِ البطـل ومن الجبـان ؟ تريـد حكـومتـك أن تنسف كـوبـا ونيكاراغوا وإيران ولبنان وسوريـا عن وجـه الأرض. وتعتز أنتَ بـأنـك قتلتَ عـدداً كبيراً من اليابانيين الذين تسميهم «جابز» في الحرب العالمية الثانية. لماذا تختزن في نفسك هـذا الحقـد كله ؟ بأي دافع تنهض بـاكراً كل صبـاح وترفع العلم الأميريكي أمـام بيتـك ؟ ولكن مـا نفع التساؤل. ماذا يفعل مَنْ لا صوت لهم ؟ ماذا يفعل الضعفـاء ؟ أريـدك أن تعرف أنني أقف في صف مخـول الـذي لم يقـاوم. بعض الضعفـاء يقـاومـون عنـدمـا يُهـدّدون في صلب كرامتهم. سيصنعون من موتهم تاريخهم. لا تنس أننا نحتفل بطقوس موتنا، لا بطقوس مولدنا. بإمكانـك أن تصفنا بأية صفة أردت. المهم أن يقتنع البطل أنه بطل. المهم أن يظل البطل بطلاً يحافظ على نقائه. لا تنس أن التـاريخ صراع. سلاحكم أن تصنّفوا البطل إرهـابيـاً والخـائن معتـدلاً. حكومتك عرّفت المعتدل بأنه مَنْ يرغب بإقامـة صـداقـة مع أميركـا ويحرص على مصـالحهـا. ترى الأمـور من هـذا المنظـور فحسب. هـل للشعـوب المُستضعفَـة مصـالـح ؟ تضحكـون على أنفسكم فيما تظنون أنكم تضحكون على العالم والتاريخ. وكيف تسوّغون سحق الأزهار ؟ أردّد

ما قاله لكم لِنَكَّلن أن لا مهرب من التاريخ الذي يسجّل مَنْ يسلك طريق الخير ومَنْ يسلك طريق الشر.

كانت الغالبية العظمى من أهل قريتنا من العائلات المستورة تأكل خبزها القليل بعرق جبينها الكثير. لا مال، لا علم، لا فرص. كنا متخلّفين يا مستر أندرسون. إنما كان في القرية عائلتان أو ثلاث من الوجهاء على علاقة وثيقة باقطاعيّي المنطقة ورجال السياسة والدين والتجار الكبار. عندما كان يزور الكبار القرية في أيام الانتخابات أو الأعياد كان هؤلاء الوجهاء الصغار يتنافسون وأحياناً يتقاتلون على استضافتهم فيكبرون في أعين الصغار وعليهم. كانوا فعلاً يتقاتلون. ضرب عصي وحجارة. لا مبالغة. قتال عنيف كذلك الذي كان يشنه الضعفاء بعضهم ضد بعض عندما يختلفون حول الأولوية في تفجير ساقية الماء وريّ بساتينهم. أذكر مشهداً لا أنساه. رجل انفجر رأسه وغمر الدم وجهه وعنقه وثيابه.

المهم أن ابن أحد الوجهاء الصغار انتشل من يدي كرة كان أبي قد اشتراها لي في إحدى رحلاته. أخذها مني عنوة وانطلق إلى بيته. يومها بكيتُ وانسحبتُ مقهوراً باتجاه بيتنا. يبدو أن أبي كان يراقب العملية من سطح بيتنا دون أن أعلم فهبط لملاقاتي. انتظرني في منتصف الطريق عند مفرق لم أره حتى وجدت نفسي أمامه وجهاً لوجه. دون استفسار وشرح أمرني أن أعود وأستعيد الكرة مهما كانت النتيجة وأنذرني ألاّ أعود إلى البيت بدونها. تجاه هذا الحزم لم يكن أمامي مجال للتردد. لم أبكِ. عدتُ وأنا أعرف تماماً أن جارنا أقوى مني وأن أحداً من قبل لم يجرؤ على مواجهته. ولكن كان لابد من المواجهة. دخلتُ تواً في معركة واستغربتُ أن ابن الوجيه لم يكن قوياً بقدر ما توهمت. رميته أرضاً. وانتزعت الكرة منه وعدت مزهواً. كان أبي لا يزال ينتظرني. لم يقل شيئاً بتاتاً. وضع كفه على كتفي ومشينا معاً إلى البيت. كسر لي جوزة ولفها بقطعة ملبن وقدّمها لي. أنت لا تعرف أكل الجوز والملبن يا مستر أندرسون. خالتي نظيرة ما تزال ترسل لي الملبن إلى أميركا. عمتي فهيده ترسل لي أيضاً مؤونة الشنكليش هي وخالتي لطيفة. سأكون صريحاً معكَ وأخبرك بأنني وعدتُ عزمي عبد القادر أن أقدّم له جوزاً وملبناً عندما يستعيد بيته في القدس.

هناك شيء آخر أريد أن أخبرك إياه يا مستر أندرسون. فيما كنتُ أتسلق جبال شنندوه استمعتُ إلى شريط أهدابي إياه حنا، مرتل الكنيسة الأرثوذكسية هنا في واشنطن. تريد أن تعرف ما هو الشريط ؟ أخبرك أنه تلاوة قرآنية للشيخ مصطفى إسماعيل. فيما نتسلق جبال شنندوه ارتفع صوته رزيناً هادئاً :

﴿ولقد آتينا داوود وسليمان علماً
... وقال يا أيها الناسُ عُلِّمنا مَنْطِقَ الطيرِ
... وحُشِرَ لسليمان جُنُودُه من الجنّ والإنْس والطير
... حتى إذا أتوا على وادِ النمل قالت نملةٌ يا أيها النملُ ادخلوا مسـاكِنَكُم لا يحطّمنكم سليمان وجنوده
وهم لا يشعرون.
... قالتْ إنّ المَلوكَ إذا دخَلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعِزةَ أهلِها أذِلّة.
ارجع إليهم فَلَنَأتِينهُم بجنودٍ لا قِبَل لَهم بها ولنُخرجنهم وهم صاغرون﴾.[3]

هذه رموز يا مستر أندرسون. أمس قرأت أن صهيونياً حسب القرآن في يـد عربي قنبلـة فـأطلق عليـه النـار. إصفـائي رموز. لـو كنتُ أفتش عن مجرد الكَيف لكنت استمعت لقُرَانْـك سِينَاتْرا الذي يغني للجنود المنكسرة في قواعد عسكرية حصينـة. لمـاذا أذكر أسماء تـافهـة من هـذا النـوع ؟ لا أدري. لا يجـوز. ربمـا لأنـك تحبهـا أيهـا الـذي يريـد حكـومتـه أن تنسف مجتمعات متمردة عن وجه الأرض ويعتز أنه قتل عدداً من اليابانيين.

أعتذر يا مستر أندرسون. قلت لك مـا أشعر بـه بصراحـة متنـاهيـة. ولكن لا أريـدك أن تستنتج أنني أحقد عليك. تخطئ إن استنتجتَ ذلك. أشعر معـك في الواقع وأريـد أن أهنئـك أن العملية التي أجريت لزوجتك في المستشفى كانت ناجحـة. كل مـا أردت هو أن أحـذّرك من اختطاف الكرة واغتيال الأزهار. أعرف أنك لن تتمكن من التمييز بين القاتل والضحية. ثم بإمكانك أن تلقي علي محـاضرة حول الـديمقراطيـة. لا مـانع عنـدي. أستطيع أن أصغي كمـا أصغيت مرات في السـابق. ولكنني أريـدك أن تعرف أنني تجـاوزت الخمسين من عمري ولم أنتخب مرة واحدة في حياتي. هـذا هو تعليقي الوحيـد على الـديمقراطيـة. إنني بـذلـك مثل بوب فروست الـذي لم يسّجل ولم ينتخب. يفضّل أن يعزف القيثـار على أن يخـدع نفسـه فهو يعرف أن لا اختيار حقيقي في الأمر.

إنني متخلف من العالم الثالث. ربما لاحظتَ أنني عنـدمـا أنزل من السيـارة أربّتُ على مؤخرتها. أكيد لا تعرف السبب. في طفولتي كنت أركب البغل. وعندما أنزل عنـه أربّتُ على مؤخرته متشكراً. إنها عادة من المـاضي السحيق. حتى السيـارة نعـاملهـا على أنهـا مخلوق حي

3) سورة النمل : 14ـ37.

ونشكرها. قبل أيام سألتني أمي إذا كان أخي قد حسّ البغل وقد قصدت إذا غسل السيارة. أفهم استغرابك كيف يمكن أن أكون أستاذاً في واحدة من أفضل الجامعات الأميركية. أمس قرأت أن بعض الشباب الأميركيين البيض يعتدون على المهاجرين الكمبوديين لأن هؤلاء تمكّنوا أن يحققوا بعد ثلاث سنوات من هجرتهم ما لم يحققوا هم طيلة حياتهم. ولكن هذا الاعتداء ما كان يحصل لولا المناخ العام الذي تولّده سياسات حكومتك العلية. أؤكد لك أنني لست غافلاً عن وجود تناقضات وتيارات متصارعة في الغرب. أمس قرأت قصيدة لطالبة جامعية جاء فيها :

أنا غربية
كنت ضيفة عائلة سودانية في الخرطوم
حيث يلتقي النيل الأزرق بالنيل الأبيض
ليس هناك مطر في السودان
هناك جوع في السودان
هناك الشمس والناس
آكل، آكل طيلة اليوم
آكل الجبنة والطعمية والكبدة والسلطة والتمور
أشرب الشاي
أنا ضيفة في السودان
أنا غربية
نركب سيارة مرسيدس مكيفة
لا أستطيع أن أميّز
بين النيل الأزرق والنيل الأبيض

الطالبة الجامعية إسمها إيزابيل. هل تريد أن تتعرف إلى إيزابيل يا مستر أندرسون ؟ لا أدري ماذا تعتبرها. على الأغلب أنك ستعلنها شيوعية فترتاح من عناء البحث عن الحقيقة.

□ □ □

جيلٌ آخَر مِنَ الغَابَات

عدت إلى الواقع من رحلاتي الخيالية. قلتُ لنفسي، «أهنئك بانتصاراتك الوهمية يـا دون كيشـوت»، ولحقتُ زوجتي التي كـانت تجمـع نمـاذج مختلفـة من أوراق الشجر المتسـاقطـة. سألتُها إذا كانت تتزوجني لو طلّقنا، فأجابتْ من دون تردد أنها كثيراً ما كرّرتْ أخطاءهـا في السابق ولكنها ستحرص ألاّ تفعل ذلك في هذه الحالة. قلتُ لها : لن أوافق على طلاقنـا لأنني حتماً سأعود لأطلب يدك.

احتويتها بذراعي. أطلقت سراحهـا. سرنـا جنبـاً إلى جنب. نجوب طرقـاً فرعيـة ضيقـة، ونعود نسلـك الطريق الرئيسيـة. نتـابع السير دون هـدف. يقفز أمـامنـا «تشبمنـك» ويخش في جذع شجرة مهترئ. نقرأ لوحة صغيرة تتحدث عن تلك الشجرة وعلاقتها بالموت والحياة :

تزحم الشجرة الميتة بالحياة
بعد أن تموت تتوقف عن مقاومة غزو الخنافس والبكتيريا والفطر.
حالما يصبح خشبها طرياً،
تهاجمها الديدان والنّمل والحشرات الأخرى،
فتصبح منزلاً لمخلوقات حية عديدة،
... تتفتت مع الزمن وتعود إلى التراب
غذاء لجيل آخر من الأشجار.

تسربتْ هذه الكلمـات إلى عـالمي البـاطني وتوالـدتْ، ففكرتُ بغـابـات المستقبل التي تتوالد من جذور غابات تموت اغتيالاً. لا شيء يستمر، إنمـا لا شيء ينتهي. ليس الموت رحيلاً إلى عالم آخر، أم تراه كذلك يا إلياس الأخرس.

تغمر وجهي غيمـة من حـزن وتنعكس ظـلالهـا في عيني حبيبتي. أفكر أن البحيرات مرايا السماء والأشجار، وأنادي طائر الحوم : مثلك رحيلي وولادتي بعد كل موت.

كـان ذلـك في أيـام الحصـاد في أواخر الربيع ومطلع الصيف. سنـابـل القمـح الـذهبيـة تتماوج في منعرجات التلال مع الهواء، تتمايل في مختلف الاتجاهات بتنـاسق، وتتلامس مثل راقصي وراقصات بحيرة البجع أو كسّارة الجوز.

وتحـوّل النهـار الحـار إلى ليـل ممطر فـاغتسلت الأشجـار والطرق والبيـوت من الغبـار واتشحتْ بنسيمات باردة. كان أبي قد اغتسل بدوره من أتعابه اليومية وصعد إلى خيمـة الغـار (عرزال كان ينصبه صيفاً بين شجرتين أمام بيتنا) لينام، غير أن نجيب وميفال حضرا في تلـك اللحظة وحدثاه مطولاً عن خلاف جرى في ذلك اليوم حول أولوية السقاية.

نمتُ قبل أن ينتهي الحـديث، وعنـدمـا استيقظتُ في صبـاح اليوم التـالي لم أجـد أبي فشرحتْ لي أمي أنـه ذهب مع طبيب الأسنـان في مهمـة إلى مرمريتـا، وأنـه سيقضي يومـاً أو يومين في مرمريتا وحب نمرة حيث سيشد سرجاً جديداً للبغل.

وعاد بعد يومين مريضاً مكوماً على نفسه من الألم. ثقل حاله تلك الليلة فلم يتمكن من النـوم. دعت أمي جـدي سليم وعمي جميـل وعمي يـوسف، وسمـع الجيران فـأقبلـوا بـدورهم يساهرونـه. وقبل أن يطلع الصبح أرسلوا عمي جميل كي يحضر الـدكتور طعمـه من المشتى. وتقول أمي، أمـا أنـا فلا أذكر وأعتقـد أنني كنت نـائمـاً، إن عمي عـاد بعـد سـاعـة وبلّغهم أن الحكيم رفض أن يأتي معه قبل أن يعطيه مسبقاً ثلاث ليرات. أعطته أمي القيمة فـانطلق مرة أخرى باتجاه المشتى. وفجأة شعر والدي بارتياح فنهض وغسل وجهه وتحدّث مع جـدي وعمي يوسف في شؤون عدة.

وحضر الحكيم فكشف عليه ودقّق في فحوصاته فيما كان يمزح معـه. استنتجَ أن المرض كان «نمونيـاً» فشكـه إبرة وأعطى أمي بعض التوصيـات ومضى يزور جـارنـا الوجيـه. أذكر أن الزوار انصرفـوا أيضـاً وعـاد أبي إلى فراشـه. وخرجت أمي تعـدّ لـه لـزقـة بنـاء على تعليمـات الطبيب، فبقيتُ وحيـداً معـه. هـذا مـا أذكره، غير أن والـدتي تقول إن أبي غـاب عن الـوعي حالما شكّه الحكيم بتلك الإبرة اللعينة، ثم تعدد أسماء ضحاياه في الضيعة والقرى المجاورة.

ما أذكره شخصياً أن أبي أومأ لي أن أجلس قربه فاقتربتُ بوجل كما اقتربتُ من طـائر الحوم المصاب. رأيتُ وجهه العسلي المحروق يزداد شحوباً وبسرعة. عادتْ الغيوم في الخـارج تُطبق على الأرض وتحبس أنفـاسهـا، وتـدخل ظلالهـا المعتمـة إلى المنـزل وتجلس معي قرب

أبي. الهواء لا يتحرك فيجثم على الصدر. غيوم كثيفة ولا تمطر هذه المرة. وحيداً أجلس قربه فيما تشعل أمي النار في الخارج وتعد لـه اللزقـة. لا يتكلم معي ولا أجـد مـا أقولـه. لا أعرف كيف أضمد جناحه الكسير.

تمتد يده إلى يدي وتقبض عليهـا. كـانتْ حـارة مضطربـة. يحـاول أن يبتسم. على غير العادة، كانت ابتسامته باردة شاحبـة نحيلـة. أخـاف ولا أجـد مـا أقول. أغرق في صمت عميق. ظلال الغيوم الداكنة تربض على الحيطان وتكاد تحجب الزوايا، فأسترجعتَ مواسم القز السنة الفائتة. في ذلك الوقت كان البيت أيضـاً معتمـاً. ضمَنَتْ والـدتي يومهـا توتـات قطيرة وربّت نصف علبة قز وتـديّنتْ مصـاري على أن تعيـدهـا في الموسم وبـاعتْ مكنـة الخيـاطـة. ولكن الموسم جاء سيئاً جداً تلك السنة خلّده عبود الحداد بزجلية ورد فيها مقطع عن أمي :

مَرْيَـمْ ربّـتْ لـقْـطـيـرهْ	قَـزّهْ مـا عِمْلَتْ غيرا
اشترتْ فيهـا صفيره	حتى تسكّتْ حلـومي

غريب أمر الضيعة في مثل هذه الظروف. دائما يسخرون من المصائب ويخرجون منهـا معافين كأن شيئاً لم يحدث.

رغم هذا التراث الذي نشأتَ عليه واستبطنتـه فـأصبح جزءاً من عقليتي ومزاجي، أعترف أنني لا أزال عاطفيا. حزنتَ عليـك كثيراً يـا عبود الحـداد. أردتَ أن تموتَ في عزك ولكنـك عشتَ طويـلاً لتتعـذب كثيراً. ذهبتَ إلى أولادك في بيروت كي لا تشهـد الضيعـة مـأسـاتـك الأخيرة. كانتْ مسرحك في أيام العز، يا شيخ القوّالة والدبكة. كنت تفتن الصبايا عندما تقود الدبكة في الأعراس والأعياد.

أريد أن أخبرك أن مريم التي ربّتْ لقطيرة وفشلتْ في مشروعهـا الأول كـافحتْ كثيراً بعـد موت أبي. حصـدتْ في سهول المشرق وخبـزتْ للنـاس في الضيعـة وخـدمتْ في بيروت فغسلتْ وكنّستْ وشطفت وكـوتْ وطبختْ كي ترسلنـا إلى أفضـل المـدارس وتحـافـظ على كرامتها وكرامتنـا. نـذرتْ نفسهـا فلم تكنّ عن العمل. وحين تخلـو لنفسهـا كنتُ أسمعهـا تردد بعض القصائد الزجلية. ومن الأبيات التي كانتْ تردّدها لنفسها :

لا بدْ عن شِـدةْ ولا بـدْ عن ضيـقْ	لا بدْ عن رخـا وأيـامْ الهمومْ تـزولْ
لابـدْ عن جـزعْ الطـويـلْ لَينحني	ولا بـدْ عن جـزعْ القصيرْ يطـولْ
لابـدْ لـلأحبـة أن يتفـارقـوا	ولـو ربطـوهم بحبـال وتـولْ

لا شـك أنـك أنتَ أيضاً كنتَ تردّد قصـائـد الصبر والأمـل. تعرف ولا شـك بيت الشعر الشعبي الذي يقول «ياقلبْ كونْ صبورْ لتهونْ الأمورْ». ولكن لا بـد من كفـاح وكبريـاء. لقـد شكّل هذا مشكلة بـالنسبـة لي كفقير في أواسـط الأغنيـاء في المـدرسـة وبحكم عمل أمي. لم أرتح يوماً لعلاقاتي بـالأغنيـاء. أحسستُ دائمـاً أن علاقتي بهم كـانت في أسـاسهـا مبنيـة على الإذلال، خصوصاً عندما تتم باسم الرحمة. لا أحب هذه الكلمـة. أكرههـا بقـدر مـا أحب كلمـة عدالة. لابد أن لهذا تـأثيراً كبيراً على موقفي من الـدين. لا تسـألني كيف. لا أدري. هـذا مـا كنتُ أحسه في عمق أعمـاقي. كـانت تتوتر علاقتي بـالأغنيـاء خصوصـاً حين أتفوق عليهم في المدرسة، وحين يقولون «الفقير فقير بسبب كسله». أظن أن هذا هو السبب الذي جعل إحـدى السيدات اللواتي تشتغل لهم والدتي أن تنصحها بإخراجي من المدرسة فأعمل وأساعد العـائلـة. طبعاً، رفضتْ أمي النصيحـة، وكـادتْ أن تسـألهـا لولا العيب «ولكن منْ يعلّم أولادك إذا ترك ابني المدرسة» ؟

آه، تذكّرتُ الآن مـا أردتُ أن أقولـه لـك. أمي كبرتْ ولم تعـد الإنسـان الـذي تعرفـه أو حتى الذي نعرفه نحن. أقول لك سراً لم أقلـه لأحـد من قبل ولا أعتقـد أنني سـأجرؤ حتى أن أواجه به نفسي. أنتَ وأنا والجميع يعرفون أن لأمي فضلاً كبيراً علينـا وأسعى أن أكـافئهـا على أتعابها وأوفر لها حياة سعيدة كريمة في السنوات الأخيرة من عمرها. إنما كانت هناك مشكلـة مستعصية قبل سقوطها. لمدة أصبحتْ حياتها مليئة بالأوهـام والشكوك. لم تكن تفكر بنفسهـا. أنكرت ذاتها كلياً. ولكنها وقد بلغت السابعة والثمانين أصبحت مشغولـة بنفسهـا كليـاً. انطوتْ على نفسها فلم تعد ترى غير همومها. كـان أكثر مـا يخيفهـا أن تعجز فلا تتمكن من العنـايـة بحـالهـا وتردد «يـا اللـه من وقعتي لحفرتي». وقعتْ ولم تـذهب إلى حفرتهـا. مـدفـونـة فـوق التراب لا تحته. حتى قبل وقوعها لم تطمئن لعلاقاتها، فكانتْ تصلي بـاستمرار للـه كي يشفق عليها ويعينها على آلامها ويحنن القلوب عليها ويبعد الأعداء عنهـا. في سبيل أن تتغلب على مخاوفها ووحشتها وضجرها، حوّلت حياتها إلى طقوس تدور حول مشـاكلهـا وأوهـامهـا. بـدأتْ تنسى كثيراً. تنسى الأسماء والوجوه والحقـائق ومـا تقول أو تسمع. وبسقـوطهـا نسيت كـل شيء. صعب جداً أن يرى الإنسان أمه تنهار، وبهذا الشكل. لم تساعدني على مساعـدتهـا فعميقـاً في قرارة نفسها كـانت تعتقـد أن الوَلَـد هو الـذي يجب أن يسمع من الأهل وليس العكس. كـانت تتجاهل نصائحي فأغضب عليها غضباً شديداً. طبعاً حاولتُ أن أصبر عليها مـدركـاً أنني يجب أن أتجـاهـل هفـواتهـا المتكررة. ولكن الإنسـان لا يستطيـع أن يضبـط أعصـابـه دائمـاً. كنت

أغضب، أصرخ، أشتم، أهدد، إنما عبثاً. لم تكن تعرف أنها تخطئ، وعندما كانت تعرف وتعترف (وكان هذا شيئاً نادراً جداً)، كانت تجرّدني من سلاحي إذ تقول، «يقطع عمري. خرفتْ. طوّلْ بالك عليّ يا ابني. سامحني». وحين كانت تذكّرني بتضحياتها وتحاول أن تثير إحساسي بالذنب (وهذه مهارة تجيدها تماماً)، أزداد غضباً. ومع الوقت تعلّمتُ أن أواجه محاولاتها لإثارة شعوري بالذنب بسخرية لاذعة فأقول لها «أبي لم يمت، هرب». كان ذلك يُغيظها حقاً. ولكنها أيضاً تعلّمتْ ألا تهتم. أما الدرس الأهم الذي تعلّمتُه أنا فهو أن الإنسان يجب أن يعرف متى يموت. أرجو أن أعرف متى يجب أن أستقيل من الحياة. ليس أتعس من الإنسان الذي ينشغل بنفسه. كم أحس بالشفقة على المنشغلين بمهمة إنقاذ أنفسهم بدلاً من مهمة إنقاذ العالم. ربما هذا سر من أسرار تعاسة الأميركي ووحدته العميقة عمق الصحراء. هذا ما كان عليه وضع أمي قبل سقوطها، والآن تضاعفتْ مشاكلها وتعمقّتْ واتخذتْ أشكالاً جديدة.

أظن أن الحديث أصبح مملاً ولم تعد تفهمني. ربما لا أفهم نفسي. ما أرحم الموت قبل فوات الأوان ! ما أصعب الموت في أوج تفتح الحياة. أتذكر الآن إلياس الأخرس. تزوج متأخراً فجاءه صبي فرح به كثيراً. ولما كبر خرج للصيد مثل أدونيس ولم يعد. وجدوه مقتولاً. هل افترسه الخنزير الذي افترس أدونيس ؟ دمه لم يسل في النهر ولم ينبثق الربيع في حياة إلياس الأخرس بعد ذلك الحين. الموت في الشباب قاس كالصوان يا عمي إلياس. الآن متّ وارتحتَ، لا شك.

تمتد يد أبي وتقبض على يدي. يأخذها إلى فمه ويقبّلها. يجتذبني إليه. يسند وجهي إلى وجهه. يضحك عندما شعر أنني أحاول أن أبعد وجهي بلباقة وسأل : شوّكتك ؟ لم أحلق ذقني اليوم.

ترتفع يداه فجأة نحو السقف. تهبطان ببطء. يكز على أسنانه. أحدق به مرعوباً فقد أبصرت في عينيه تحولاً كبيراً. يجب أن يكون قد أبصر الموت وجهاً لوجه. لم أتمكن أن أتحرك من مكاني فصرختُ لأمي. اختنق صوتي. كان لا يزال يكزّ أسنانه.

أَقَاصِي الحُزْنِ والفَرَح

وأستيقظُ فجأة من كابوس، فقد أحسستُ بيد حبيبتي تغط على كتفي تحت شجرة وارفة من أشجار جبال شنندوه. يدها عصفور يغط على أغصاني. تهتز ورقة شجر صفراء وتسقط فوق جدول في الكفرون فيجرفها تيار بسرعة نحو الشلال.

أسأل حبيبتي : هل تذكرين شلالات المخاضة في الكفرون ؟

- نسميها شلالات ؟ لا تقارن حتى بالشلالات الصغرى في نهر البوتمك ؟ المهم ما جلبها لرأسك الآن ؟

- طائر الحوم.

- طائر الحوم ؟

- نعم جلبها إلى رأسي طائر الحوم. يذكرني حديثنا بذلك الطفل الذي سأل أمه من أين جاء فقالتْ، «جلبك طائر الوَرْوَرْ» ثم سألها من أين جاء أطفال الجيران فأجابت إن سمير طلع من الملفوفة وفادي من الخسة وفاديا من الوردة وسليم من التفاحة، فقاطعها الطفل، «بيظهر الرجال والنسوان ما بيناموا مع بعض في هذا البلد» ؟

لم تضحك حبيبتي ولو مسايرة فقد سمعنا هذه النكتة مرات عديدة قبل ذلك وحتى الملل. وبوجوم عادتْ تسألني : لم تخبرني كيف جلب طائر الحوم شلالات المخّاضة إلى رأسك.

- حملها بمنقاره الطويل الصلب وتحت جناحيه الكبيرين.

- ثقيل.

أدركتُ أنها تعني ما تقول فقد ازداد وجهها وجوماً فيما تحدق بي منتظرة جواباً جاداً. قلتُ بهدوء : عندما ألقيتِ يدكِ على كتفي وأنا غارق في تخيلاتي حسبتها للوهلة الأولى

طائراً يغطّ على غصن شجرة دلب عند ضفّة النّهر في الكفرون. وعندما قفز إلى غصن آخر تساقطتْ ورقة إلى النهر وانجرفتْ في التيار نحو شلال صغير.

اختطف تيار الموت أبي إلىٰ عالم آخر. هدأ وجهه كورقة خريفية صفراء. هبط الموت إلى الكفرون المشرفة على أودية خضراء وبحث عن روح أبي المتعبة التي قاستْ طويلاً في كروم لم تثمر. هبط الموت كعقاب واختطفه وحلق به بعيداً.

العيون تذرف الدموع. الزوجة المكلومة القلب تبكي. الإبن المكسور القلب يبكي. الإبنة المتروكة المستوحدة لا تكف عن البكاء. والصغير الصغير الجميل الذي ورث ملامح والده لا يفهم ماذا جرى، وإن أحس أن فاجعة حلّتْ في عالمه. شاهدوا جميعاً الموت مقبلاً مثل عقاب يهبط نحو الأرض بسرعة فائقة، ويقتلع أبي من وطنه دون أن يترك مجالاً ليهمس وداعاً. المحزن في الأمر أن الصغير لا يعرف بوجود وطن آخر.

تستغيث أمي فيندفع الأقارب والجيران. يدق جرس الحزن. فتسأل الفتاة الصغيرة فهيدة : مَنْ مات ؟

يقال لها «يا ويلك، أخوك» فترمي حزمة الذرة عن رأسها وتنزع قبقابها وتركض حافية. كذلك مريانا الجميلة اللطيفة الحنونة المرحة المحبة، يحل الرعب في وجهها مكان الابتسام الدائم وتركض باكية حافية إلى منزل ابن عمها الأقرب إلى قلبها. يصل بقية أهل الضيعة. يقبل أناس آخرون من القرى المجاورة. ينادون الطبيب الذي كان لا يزال يزور وجيه الضيعة، فيرشف البقية الباقية من فنجان القهوة ويقبل متردّداً. أفسحوا له الطريق إلى فراش الميت. يتأمله، يلمس ذراعه، ويعلن موته رسمياً، «عوّضنا بسلامتكم»، يربّت على كتف أمي مصبّراً، وينحني ليقبّلني وينسحب بسرعة.

أضيع في زحمة البكاء والنواح والولولة. سمعتُ بالموت قبل ذلك وشاهدته وجهاً لوجه ولكنني لم أحس به بهذه القسوة حتى تلك اللحظة. هبطتُ إلى قاع البكاء واختبأت. يتجاذبني الناس ويمتزج بكائي ببكائهم. أسمعهم يبكون فأشهق، ويسمعون شهيقي فيملأون السماء بنواحهم. أشهد أمي حتى هذه اللحظة تلطم وجهها وصدرها، فألطم وجهي. تضمني إلى صدرها وتخفت نحيبها. تهمس جارتنا لغسان أن يأخذني إلى بيتهم، فيقترب هو وجمال ونصري وسليم ويأخذونني عنوة. غسلوا وجهي بماء بارد وأحضروا المنقلة وأقنعوني أن أشاركهم اللعب في محاولة للتخفيف عني. استغربتُ أنني استجبتُ.

- تأملي أنني لعبتُ المنقلة أثناء موت أبي.

قلت ذلـك لحبيبتي كـاشفاً عن سرّ دفين آخر، لم أجرؤ أن أصرح بـه لأحـد من قبـل. وعندما يخطر في بالي أكبته وأحاول أن انشغل بشيء آخر.

واحتجتْ حبيبتي : لِمَ تخطر لك كل هذه الأمور الآن ؟ غريب أمرك. تمتّع بهذا العالم الساحر. هل هناك ما يفوق هذا الفرح ؟

ـ أتمتع به صدّقيني. لست حزيناً. يبـدو لي أن هنـاك خيطـاً رفيعـاً لا مرئيـاً يصل بين أقصى الحزن وأقصى الفرح. يخطر لي أحياناً أن الموت كان متعة للأطفال في ضيعتنا. ربمـا كـان لعبة غير عادية من ألعابنا. قلت لكِ إننا نخترع ألعابنا ولا نشتريها جاهزة مثل أبنـاء المـدن الـذين لا يتغلبـون على ضجرهم من لعبـة إلا بشراء لعبـة أخرى فتتراكم ألعـابهم في زوايـا النسيان كما تتراكم حياتهم. مترفون حتى الميوعـة والتعفن. عنـدمـا كـان يموت شخص في الضيعة، كنـا نترك كل شيء ونخرج مع النـاس إلى المقبرة. نراقب مختلف الوجوه والتعـابير ونصغي للتراتيل ونتسلق الأشجار أو نحدق بين الأرجل إلى التابوت يُـدلى في حفرة ويُهـال عليه التراب والحجارة. وبعـد أن يفترق النـاس ننبر الـدوّام والقلاليح عن أشجـار السنـديـان الضخمة. كان الدوّام كستناءنا. أما القلاليح التي تسميهـا الكتب عفصاً على مـا أعتقـد فكنـا نقلّمها ونلعب بها أو نتراهن عليها.

ـ أعرف أننـا عـاطفيون جـداً في مواجهـة الموت، بعكس أهل الغرب. هم يبـالغون في البرودة ونحن نبالغ في البكاء. إنما لم يخطر ببالي أبداً أن الموت يمكن أن يكون لعبة.

تذكرتُ حين تحوّل بكاء حبيبتي نفسها إلى شهيق متقطع وكـاد يُغمى عليها بين يـديّ عندما واجهت جثمانات والدها وأخيها وزوجتـه وخـالتهـا في بيت الـدفـان في «ديترويت». صرختُ بها أن تتمالك نفسها يوم ذاك فدفعني خالها الحكيم جانباً وطلب أن يفسحوا المجـال كي تتمكن من تنشق الهواء.

تجاه هذه الخواطر شعرتُ بضرورة تغيير الموضوع، فقلتُ لها فيمـا أقفز لأصل إلى غصن شجرة يتدلى مشبعاً بألوانه الزاهيـة : لا أصـدق أن الخريف يمكن أن يكون بهـذا الجمـال. لا شك أنه يضاهي الربيع. هذه الألوان سيمفونية ساحرة. هذا التنـاسق الهـائل موسيقى رائعـة. لا يمكن أن أنسى تلك الأمسية التي سمعنا فيها السمفونية التـاسعـة لبيتهوفن في «الهل أوديتوريم» في جامعة ميشغن. هذه السمفونية هي قمة الموسيقى، والنشيد قمتها الأسمى في تاريخ الإبداع الإنساني. أذكر كيف أحـاط بنـا المنشـدون فتقـاذفتنـا الأصوات كمـا تتقـاذف الأمواج زورقـاً صغيراً. يا نعمة الارتفاع إلى قمة الكون، يـا نعمـة الهبوط إلى أعمـاق العـالم. نشرف على قمم

جبال الهيملايا ونغور إلى قاع جحيم دانتي. أيها التموج، أيتها العواطف، أيتهـا الرّعود، أيتهـا البروق، زعزعي أصول العالم وأعيدي بناءه. هذا ما أحسست به تمـامـاً اليوم وأنـا أواجـه تـدفق الشلالات وجهاً لوجه. ترى لذلك هبطتُ الشير وعبرت فوق الشجرة ـ الجسر إلى صخرة وسط تدفق النهر ؟

التفتُ إلى حبيبتي وأعترف : تغير وجه عالمي منذ عرفتك.

ـ وأنا أيضاً.
ـ سقطتُ في شلالاتكِ، ورفعتني غيومكِ إليها.
ـ شاطر في الكلام. تبيعني حكي بحكي.
ـ لا أريد ثمنها.
ـ أدفع ثمنها، إذا أردت.
ـ لا ثمن لها.

ونتوقف عنـد لوحـة أخرى تصف تـاريـخ صخرة تفتتْ وطلعتْ في شقـوقهـا النبـاتـات. أتـذكر الصخرة الكبيرة التي نبتت فيهـا تينـة في الكفرون وآسف أنهم أزالوهـا من الوجود كي يفتحوا طريقاً واسعة مستقيمة. أشتم أهل الحضارة الحـديثـة الـذين يعملون في حقل التنميـة. يسمون الهدم تنمية. وأنت يا منيف كيف تجرؤ أن تتهمني بأنني أريد أن تظل الضيعة متخلفة لأنني انتقدت مشاريع تحويل المجاري إلى النهر.

نقرأ اللوحة أمـام الصخرة المفتتـة في جبـال شننـدوه. تقول إن تلـك الصخرة في طريق الزوال. منـذ آلاف السنين تمكنّتْ قـوى الطبيعـة أن تُحـدث فجـوات فيهـا فتسرّب المطر إلى الداخل. وعندما كـانت الميـاه تتحول إلى جليـد في الشتـاء، كـانت تتسع الفجوات. ثم تسرّب التراب إلى تلك الفجوات فطلعتْ فيها النباتات. صارت إحدى تلـك النبـاتـات شجرة تمكّنتْ من أن تقلع الصّخر. مزيد من المطر، مزيد من التراب، مزيد من النباتات، مزيد من الجذور، مزيد من الفجوات والتشقق والتفتت. هذه الصخرة في طريق الزوال.

أعلّق باقتضاب : الموت تحول.

ـ لا شك في ذلك.
ـ الأشجار والصخور دليل على ذلك.

فيما نلعب المنقلة مرّت أم منيف وأم سليم في طريقهما إلى بيتنا للتعزية. إلتقتْ عيناي بعيني أم منيف فحدّقتْ بي مستغربة، ثم التفتتْ إلى أم سليم تسألها : أليس هذا هو ابن المرحوم ؟ مسكين يلعب. لا يعرف معنى الموت.

واعترضتْ أم سليم : طفل يا حسرتي.

أحنيتُ رأسي خجلاً وحرجاً، واندفعت باتجاه بيتنا. ضعتُ في زحمة النواح مرة ثانية. كانوا قد وضعوا أبي في تابوت خشبي وأجروا الترتيبات الضرورية لحمله إلى المقبرة. قرروا أن يدفنوه ذلك اليوم بالذات، وبعد ساعات قليلة من موته رحمة بأمي وبنا. حمله أصدقاؤه وخرجوا به إلى المقبرة حيث سيستقر نهائياً تحت شجرات السنديان الكبيرة.

لم يجنّبوا أمي مزيداً من الحزن بدفنه بعد موته بساعات. على العكس تعمّق الحزن وبقيت الحسرة في نفسها حتى هذه البرهة وسترافقها حتى نهاية حياتها الطويلة. صرختْ يومها وقد تمسكت بها النساء «أخذوكَ مني يا حبيبي. أخذوك مني. أرجعوه. بعد لم يبرد جسده. تدفنوه قبل أن يبرد جسده ؟» وبهدوء رتّلت «غِبْتَ تَحْتَ الأرض كحبة من حنطة» و «مَنْ يُعطيني ينابيع الدموع لكي أبكي».

وتردد في الضيعة والقرى المجاورة في اليوم التالي أن رجلاً من قرية المهيري المجاورة. مرّ في المقبرة ذلك المساء فسمع أنيناً في القبر فهرب خوفاً. تطوع أحد الجيران وأبلغ أمي الإشاعة فأغمي عليها. منذ ذلك اليوم وأنا أحاول أن أقنعها بأن الإشاعة لا يمكن أن تكون صحيحة مستعملاً القليل مما أعرفه من المبادئ العلمية. عبثاً حاولتُ. لا تزال حتى اليوم تظن أن أبي أغمي عليه بسبب الإبرة التي حقنه بها الحكيم وتصف الذين دفنوه بعد ساعات من موته بالتوحش.

قبل سقوطها بأيام قليلة، كنتُ أتحدث معها في أمور الماضي فقالتْ بغضب ومرارة، «مالي في هذه الدنيا أسف غير أسفي على أبيك. الله يقطع الحكيم طعمه. لولا الإبرة التي حقنه إياها لم يمت. قام من فراشه وغسل وجهه وتحدث معنا كأن لم يكن به شيء. تحدث مع أبيه وابن عمه يوسف عن رحلته إلى المشتاية ومرمريتا وحب نمرة. لما أعطاه الحكيم الإبرة غاب عن الوعي. يا ما قتل مرضى، الله لا يوفقه. والناس يا أمي عندنا وحوش. قبروه قبل ما يبرد جسمه ؟ كيف سمح أبوه وإخوته وأولاد عمه ؟ أخذوه مني بالقوة ؟ قطيعة، مات الظهر عملوا التابوت وبحشوا القبر ودفنوه بعد الظهر. لو تركوه إلى اليوم التالي. والرجل مِنْ

المهيري سمعه يئنّ. هرب بدل ما يدبّ الصوت على أهل الضيعة. كيف بتريدني زور الضيعة ؟ ما بقدر. ما بقدر. الله يقطعهم وحوش».

بقدر ما أحب الضيعة تمقتها أمي. عبثاً حاولتُ أن أغيّر رأيها. عندما تغرز فكرة في رأسها لا يمكن أن تطلع منه. ورغم إيمانها العميق لا تنسى أيضاً أن الحكيم ورجل الدين اقتسما الثمانية ليرات الوحيدة التي تركها أبي وتقول، «هؤلاء هم أكلة أموال الأرامل واليتامى».

لا أنكر أن كلام أمي الذي ردّدته على مسمعي طول حياتي أثّر في تكوين موقفي من رجال الدين والأغنياء.

التقيت فتاة جميلة قريبة للحكيم عندما كنت طالباً في الجامعة ونشأت بيننا صداقة متينة وكادت أن تصبح عميقة لو لم تصدر مني هفوة، إذ تطوعت وأخبرتها قصة الإبرة التي قتلت والدي، فخافت واختفت.

وفيما يتعلق برجل الدين قيل لي إنه أيضاً فقد عقله واحتفظ بجسده، في أواخر حياته، فكان يمزق ثيابه ويلاحق الساقية عارياً ويمشي في الليل يستفقد البساتين فتخرج عائلته تبحث عنه. ومما روي لي أنه كان يذهب إلى المقبرة ويجمع الجماجم ويلقي فيها خطبة ويهددها بالجحيم ثم يصفّها في خط طويل ويتسلق شجرة السنديان ليتأكد أنها تشكل خطاً مستقيماً.

حزنتُ عليه كثيراً، فقد كنتُ دائماً أثقّف نفسي بالترفع عن الصغائر، وأكتفي بخوض المعارك الكبرى. أظن أنني خضتُ العالم حقاً وتعرّضتُ لمختلف تياراته. وبقدر ما تعرضتُ بقدر ما تحمستُ للحياة. خضت العالم، قاتلته، غصتُ فيه، اخترقتُ بحاره، ورأيتُ خروجي منه مثل خروج السمكة من الماء : اختناق وموت داخلي أكيد.

مليء بالغضب المكبوت، وأكثر ما يُغضبني هذا الافتراس وهذا القهر. عندما أفكر أن تاريخ الإنسان هو سجل هائل للافتراس، أشعر بالذنب أنني لم أنذر نفسي للقتال. ما أكثر القتل ! ما أكثر الأقنعة ! ما أكثر الخوف ! ما أحوجنا للقتال في صف مخول ! لماذا أنا في واشنطن وجبال شنندوه ! لماذا لم أكن فيكِ يا بيروت وقت حصارك ؟ لماذا لم أقاوم الدبابات الإسرائيلية وهي تسحق الأزهار البرية في الجنوب ؟ المقاومة ملح الأرض.

أنتِ أيتها الحضارة المقنّعة. أرفضكِ. هزيلة هزيلة. أعلنك هزيلة وحقيرة. تُسمّين الأبطال المحررين إرهابيين. أعلنكِ إرهابية ! تصنّفين العالم إلى متحضرين وبرابرة. أعلنكِ

بربرية مع أنّني أمج هذه اللّغة فربّما تفهمين لغتك. أعلنك هزيلة وحقيرة. أناقتك قناع. أزياؤك الجميلة أقنعة. أنتِ لا تعرفين ولكنني أنا أعرف أن هناك علاقة بين انشغال شعبك بتخفيف وزنه بسبب التخمة وجوع أفريقيا. ديمقراطيتك افتراس مهذب أنيق، مصابة بالعفن. اليوم، اليوم بالذات، قرأتُ أن أحد أغنيائك الكبار قرأ إعلاناً يؤكد أن سيارة «الرولز رويس» هي «لأولئك الأفراد غير العاديين الذين يملكون دافعاً داخلياً لتحقيق أسمى طموحات الحياة»، فقرّر تواً أن يشتري واحدة لزوجته في عيد ميلادها، ودفع ثمنها 156 ألف دولار مما يفوق ميزانية عدة عائلات فقيرة في العالم الثالث مدى الحياة. أعرف ما ستقولين. إنه ماله يتصرف به كما يشاء. أقول لكِ إنه يجب أن يكون سارقاً. يا سارقي مجوهرات أفريقيا الجائعة أين الهرب ؟ وأنتن يا لابسات فروات جراء البحر النادرة التي يقتلها عملاؤكم في طفولتها الأولى بعصيهم الضخمة، أين الهرب ! وأنتم يا مدخّني السيجارات بمشارب من سيقان طائر الحوم، إلى متى يستمر التجبر ؟ أين تنتهي حدود الاستغلال والظلم ؟ إلى متى القهر ؟ والترف على حساب حرمان الآخرين أين ومتى ينتهي ؟ حوّلتم الآخر إلى آلة أيضاً. تستأجرون الآن نساء لتجلب لكم أطفالاً. تتعاقدون معهن وهن في حالة يأس. تستودعون بيوضكم في أحشائهن. وما أن تلد المرأة حتى تنزعوا طفلها من حضنها. وعندما تتعلق إحداهن بطفلها وحشيشة قلبها، كما تقول أمي، وترفض أن تسلّمه تأخذونها إلى محاكمكم الجبارة مستعملين أموالكم ونفوذكم ضد الأمومة. تسلبون الإنسان الأمومة. أين حدود الترف والجشع ؟ لماذا أكتفي بسلاح الكلمة ؟

وأتساءل لماذا أنا مليء بالغضب. لماذا أفكر بهذه القضايا وأنشغل بهذه الهموم وسط هذه الأجواء الساحرة ؟ هل أستطيع أن أتحرر من قناعاتي وهمومي ولو للحظة واحدة ؟ أريد لحظة واحدة دون هموم.

كيف أجرؤ أن أغضب وسط كل هذا الفرح الشاسع، وسط هذا الجمال الساحر، وسط هذه الطمأنينة الكلية ! لماذا أنا مسكون بالقضايا مأخوذ بها، منذور لها حتى في وسط هذه الروعة ؟ لماذا أستدعي المسحوقين من سكينتهم بقدر ما أتمتّع بالفرح والجمال والطمأنينة ؟ ليست الحياة فرحاً وجمالاً وطمأنينة ما لم أشاركها الآخرين. عبثاً أحاول أن أتحرر من الاهتمامات. امتلئي يا نفسي بالقضايا. مثلكَ يا طائر الحوم رحيلي الدائم وولادتي بعد كل موت.

أتساءل لماذا يستحضر موتَ شجرة في جبال شننـدوه وفـاةَ أبي في الكفرون واغتيـال الأزهار البرية وسقوط طائر الحوم وانتحار البلاد وموت أبي البطيء ؟ لماذا هـذا الهروب إلى الطفولة ؟ لماذا التحليل ؟ ما الخط الفاصل بين الموت والمواجهة ؟

منذ تركتُ الكفرون صغيراً، خضتُ العالم. دخلت معاركه على جميع الجبهـات. خـارج المعركة أكون مثل سمكـة خـارج المـاء. في المعركـة أكون مثل أسماك السلمون التي حـدّثني عنهـا هـاني. تسبح في الأنهر الكبرى ضـد التيـارات صعوداً تجاه المنـابع الأولى التي وُلـدتْ فيها. وما أن تصل بعد كفاح مرير حتى تضع بيوضها وتموت.

ومثلك يا طائر الحوم عبرتُ القارات، حلّقتُ فوق القمم، رافقتُ البحار والأنهر، تعرّضتُ للقتل، وُلدتُ بعد كل موت، اخترقتُ كثـافـة الغيوم وشفـافيتهـا، لامستُ عري السمـاء، تظللتُ بـالأمطـار، قـاومتُ العـواصف، اكتشفتُ الآفـاق، فـارقتُ سربي والتحمتُ بـه، رحلتُ في الاتجاهات الأربع وشرّشتُ في الأرض، خبرتُ أقاصي الحزن والفرح.

□ □ □

الخُرُوجُ مِنَ الصدَفَة

وقدّمتْ لي حبيبتي ورقة هبطت تلك اللحظة من شجرة باسقة. تأملتُ ألوانها المتوهجة وعروقها الشفافة ممتدة في مختلف مساحاتها بدءاً من بداياتها. أعدتُ الورقة لحبيبتي وسألت : تذكرين قصة ذلك الولد المشوه الذي أُصيب بمرض الفيل فتكوّنتْ له ذراع طويلة قوية ضخمة ؟

ـ الذي كان يضرب بقية الأولاد بما فيهم إخوته وأخواته وكان له بينهم ضحايا ؟

ـ تماماً، والذي كان أهله مضطرين دائماً أن يدافعوا عنه ويطالبوا بقية الأولاد أن يتجنبوه ويتفهموه بحجة أنه مريض وحساس ومعقّد.

ـ أعرف تماماً. لماذا تذكّرني بهذه القصة ؟

اقتنعتُ بأنها تعرف ولكنني أردتُ أن أمتحنها : لماذا ؟ مارأيكِ ؟

ـ لأنك ترى أن إسرائيل هي هذا الولد. وأميركا الأهل المضطرون أن يدافعوا عنه باستمرار.

ـ صحيح.

ـ قدّمتُ لكَ ورقةً ملونة سقطتْ تواً من الشجرة لتتأمل جمالها، فتحدّثني عن الولد المشوه وإسرائيل وأميركا. غريب أمرك. تحررْ من كوابيسك.

ـ أنتِ على حق هذه المرة أيضاً.

ـ لا أريد أن أسمع شيئاً عن الموضوع لمدة.

ـ أعدكِ.

وعدتُ أتأمل ألوان الورقة المتوهجة، غير أنني سمعت أصواتاً مقبلة من قلعة الشقيف في جنوب لبنان : من أبي علي إلى 402 : وجّهوا الهواء صوبنا وكونوا صامدين. أرسلوا الطيور وقولوا اعتصموا.

نطل على واد آخر وتلة اتشحت بطبقة شفافة من الضباب. تنخطف نفسي في مختلف الاتجاهات في آن معاً. قبل سقوطها بأيام قليلة أطلقتْ أمي صوتها الحبيس متقطعاً بغناء هادئ حزين :

حـظُ النـاسْ سـوّى نخـلْ وثمـارْ   وحظي زيـزفـونْ المـاجني

تصمت. يرتفع صوتها متمهلاً مثل الضباب في الوادي بغناء لا أستطيع أن أميّز فيه بين الحزن والفرح، وأتمنى لو كان يشمل غضباً :

راحـوا شمالَ وردّتْ خيلُهُمْ قِبْلِيْ   عذّبوني يا أمي عـذابْ الخيـطْ بـالإبري

لا وحـقْ تربـةْ نبيْ والسـاكنينْ جَبْلِي   ومِنْ بعدْهُم، يـاعيني، العيشْ مـا طبلي

تصمت مرة أخرى. تبحث في ذاكرتها المضطربة عن بيت آخر. لا تجده تواً. تقول كأنها تتحدث إلى نفسها أكثر مما تتحدث معي «يا دلي، صرت أنسى كل شيء. وصوتي ما بيطلع».

ويرتفع صوتها وقد امتزج فيه الحزن والفرح دون انتهاء :

طلعتْ لراسْ الجبـلْ   ونـاديتْ خـلاني
واصفرْ لـوني وقلتْ   المـوت أنـا جـاني
يـا كـاتب المكـاتيبْ   اكتبلي معـانيهـا
لأقعـد عـالـدربْ   ومـالي مين يـودّيهـا

وتنسى حزنها عندما أناولها كأس عرق وغمسة شنكليش، فتقول «الله يخليكم. كاسكم. شفة واحدة لأقول كاسكم. أنا ما بشرب». تستقر في كرسيها وتنتقل إلى نوع آخر من الأغاني تماماً كما كان يفعل نسيم النبع :

على دلعـونـــا يـــا حبيبْ قلبي   مـا بـدكْ يـاني ارحـل من دربي

لابــــد الهـوى مـــا ينسّم غربي   وبشـوفْ حـوالـكْ لمين بتكـونـا

تتناول الكأس وتأخذ شفة أخرى. فأناولها فرمة من البنـدورة. تسألني إذا كنت رشتها بالملح الذي تحبه وتتابع :

جِئْني تتخطرْ وتقلي دَخيلَــــكْ   بنيّ صغيريْ ولاني مِنْ جيْلَــــكَ

حلّفتـكْ بـاللـهْ وسرْ أنـاجيلـكْ   وسبـع المـذاهبْ والتعبـــدونـــا

صفّقنا لها واعتبرنا أنه شيء نادر أن تخرج من صدفتها الحزينة. فطالبناها بمزيد. ورأتْ أن تختتم غناءها بالعتـابـا. تصمت، تتنحنح، تصمت مرة أخرى، ثم تطلع الكلمـات من صـدرهـا طيوراً صغيرة تحلّق فوق الأودية :

عنّيتْ وعنّيتْ عنّيتْ   شبيه البَكَرْ عالدولابْ عنّيتْ

لـولا الصبرْ والتشبيـهْ جنّيتْ   ورافقنـــا وحـوشْ الفـلا

تصمت دون أن تنزع كفها عن خدها. ننصرف عنها للحديث في أمور جدّية. تظل غارقة في عالمها الخاص، وتغني بصوت منخفض كأنما تعتذر عن استرسالها :

أوف.. أوف يــــا وجـــــاعيْ   يا فرحـةْ الـديبْ لمـا يبطلْ الراعيْ

أوف.. كلمــــةْ أوف مـــا بتشفيْ   يـا نـارْ القلبْ كلْ العمرْ مـا بتطفيْ

أستعيد كل ذلك وقد بدأنا ننحـدر مخلّفين وراءنـا جبـال شننـدوه السـاحرة التي ستعرى بعد أيام وتنتظر موسم الثلج والعواصف. ماذا سيحل بالغزلان ؟

ونقف عنـد سبيل مـاء وسـط الجبل. نشرب ونعبّئ وعـاء حملنـاه معنـا في سبيـل هـذه الغاية، كما لو كنا نسترجع لقاءنا الأول في عيتا الفخار. تتقدم فتـاة سوداء كي تشرب فـأقترح

عليها أن تشرب براحتيها كما نفعل في الكفرون ولما تحاول، أبتسم لها. تبتسم لي. كانت أيضاً جميلة حزينة كالصباح في خريف شنندوه. أردّد في نفسي :

إهبط أيها الموت، إهبط
إهبط إلى سافانا، في جورجيا
في أسفل يا ماكروو
وابحث عن الأخت كارولينا

أعود إلى حبيبتي في السيارة. تبتسم وتسألني : يا ملعون، ماذا كنت تقول للسوداء ؟
ـ قلتُ لها إنني عاشق مفتون.
ـ يا ملعون.

ونعود نقتحم الطريق عائدين إلى واشنطن. نستمع إلى شريط سجّلنا عليه تقاسيم عود لمنير بشير. نسمع ونتأوه بفرح. نتأوه بحزن. نتأوه بالفرح والحزن معاً. نصغي لشريط آخر يلقي فيه أدونيس قصيدة كما تمطر السماء فوق قصابين أو كما يلتهم الحريق الغابات في أيام كاليفورنيا الحارة :

نارُنا تتقدم نحو المدينة
لتهدّ سريرَ المدينة
... نارُنا تتقدم والعشبُ يُولد في الجمرة الثائره
نارنا تتقدم نحو المدينة

نصل المدينة ونستأنف حياتنا السابقة. نسير في شوارعها مسرعين. أمواج الناس تتقاذفنا، تهبط بنا ونصعد بها، يدخل ملحها إلى أعماقنا.
نخوض العالم كما لو كان معركة حقيقية. نسبح ضد التيارات ونحوّم فوق الأنهر. نعبر الوجوة المنبسطة المغضّنة، السوداء البيضاء، الذكية البلهاء، المنكسرة الشامخة، المليئة الفارغة، الفرحة الحزينة. نتحرر من الكآبة ونغنّي نشيد الفرح.
هل كان لابد من العودة ؟

«... إن لحليم بركات صوته الخاص، وهو صوت قوي تتبينه بين عشرات الأصوات».

جبرا ابراهيم جبرا

«أحب أن اقرأ لحليم بركات في نتاجه القصصي طينة آدم فني جديد، فهو في معاناته يعمّق ويتفرّد ويتجاوز حدود الرؤية العادية».

أدونيس

«تستعمل الحساسية في رواية حليم بركات لتُبرز الوعي الإنساني بحدّة المأساة».

إدورد سعيد

«يأتي صوت حليم بركات نهراً يتلاقّى بأنهار غاضبة أخرى في العالم».

خالدة سعيد

Les Editions Toubkal
Immeuble I.G.A. Place de la gare
Casablanca, Belvedère (05) — Maroc.
Tel : 24.06.05/42

آه، تذكّرتُ الآن ما أردتُ أن أقوله لك. أمي كبرتْ ولم تعد الإنسان الذي تعرفه أو حتى الذي نعرفه نحن. أقول لك سراً لم أقله لأحد من قبل ولا أعتقد أنني سأجرؤ حتى أن أواجه به نفسي. أنتَ وأنا والجميع يعرفون أن لأمي فضلاً كبيراً علينا وأسعى أن أكافئها على أتعابها وأوفر لها حياة سعيدة كريمة في السنوات الأخيرة من عمرها. إنما كانت هناك مشكلة مستعصية قبل سقوطها. لمدة أصبحتْ حياتها مليئة بالأوهام والشكوك. لم تكن تفكر بنفسها. أنكرت ذاتها كلياً. ولكنها وقد بلغت السابعة والثمانين أصبحت مشغولة بنفسها كلياً. انطوتْ على نفسها فلم تعد ترى غير همومها. كان أكثر ما يخيفها أن تعجز فلا تتمكن من العناية بحالها وتردد «يا الله من وقعتي لحفرتي». وقعتْ ولم تذهب إلى حفرتها. مدفونة فوق التراب لا تحته. حتى قبل وقوعها لم تطمئن لعلاقاتها، فكانتْ تصلي باستمرار لله كي يشفق عليها ويعينها على آلامها ويحنن القلوب عليها ويبعد الأعداء عنها. في سبيل أن تتغلب على مخاوفها ووحشتها وضجرها، حوّلت حياتها إلى طقوس تدور حول مشاكلها وأوهامها. بدأتْ تنسى كثيراً. تنسى الأسماء والوجوه والحقائق وما تقول أو تسمع. وبسقوطها نسيت كل شيء.





الموزع الوحيد في المملكة المغربية
الشركة الشريفية للتوزيع والصحف
(سوشبريس) - الدار البيضاء .

28 درهماً